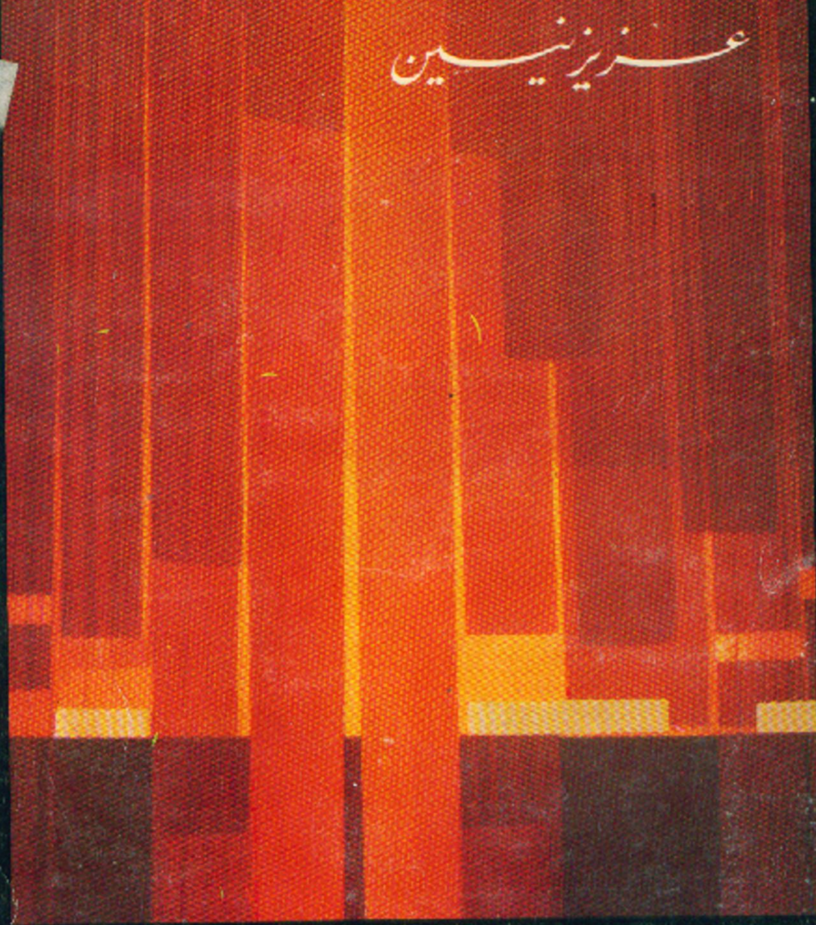
عزيز نيسين



كيف قمنا بالثورة

ترجمة:
أحمد الإبراهيم

قصص عالمية

عزيز نيسين

كيف قمنا بالثورة

قصص عالمية

ترجمة:
أحمد الإبراهيم

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٨

Hamdan.B
24/10/08

العنوان الأصلي للكتاب:

Aziz Nesin
Ihtilali Nasil Yaptik

öykü

كيف قمنا بالثورة = Ihtilali nasil yeptik / عزيز نيسين ؛
ترجمة : احمد الابراهيم . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٨ . ـ
٢٦٦ ص ؛ ٢٤ سم .

١ ـ ٨٩٤ ن ي س ك ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ نيسين ٥ ـ الابراهيم

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٢٠/٢/١٩٩٨

تفضــل الى صــلاة الميــت

من أغرب مراسيم الجنازة التي رأيتها تلك التي حدثت في مصنعنا ، عفواً ، إنها عادة لغوية فكلما تحدثنا عن مصنع شـاكر بيك ، نقـول مصنعنـا .

شاكر بيك إنسان" عظيم ، يتمتع بمزايا مدهشة ، ولكن المسكين لا حول له ولا قوة إذ أنه ولد في بلد متخلف . ماذا لو ولد في بلد من بلدان أوروبا أو أمريكا ؟ هل كان سيكتفي بما هو فيه ؟ من المؤكد سيكون الجواب بالنفي ، فلا أشك مطلقاً بأنه كان سيطوّب البلد الذي يعيش فيه بإسمه . بل وقد يستأجر البلدان المجاورة . إن شاكر بيك من عمالقة رجـال الأعمال .

عددنا في المصنع يفوق المائتي شخص ، ما بين موظفين ورؤساء عمال ومعلمين وصنّاع . كنا نعيش حياة مستقرة هانئة الى ان جـاء رجل يدعى الأسطة نوري ؛ فلم نعد نعرف للحياة المستقرة طعماً بعد مجيء هذا المخرب .

إذ أنه ، وبعد مجيئه بأسبوع أو أسبوعين بدأ يحرض العمال قائـلاً :

ــ أجور العمـال زهيـدة جـداً .

لم يحتمله الأسطة فخري ، المفعم بالإنسانيـة ، والذي يعمل في مصنعنا منذ عشرين عاماً . فقال له :

ــ ويلك يا بني ، أنت رجل" لا تشبع ، ألا تستطيع اغلاق فمك قليـلا ؟ ! من الأفضل لك أن تصمت ، الله يوفق الرجل الذي أسس

لنا معملاً وفتح لنا بذلك باب رزق نعيش منه . إننا نعمل هنا ونتقاضى بضعة قروش نعيش وأولادنا بها . فإذا طردنا من هنا كيف سنعيش ؟! أيهما تراه مناسباً أن نموت جوعاً أم أن نعيش ونعمل ونشكر هذا الرجل ؟ كما أن شاكر بيك سيجد خمسين رجلاً بدلاً منك إذا ما طردك من هنا ، بل وسيصطفون بالطابور ليأخذوا مكانك . ولكن الأسطة نوري رجلٌ عنيد ، عندما سمع هذا الكلام صرخ قائلاً :

ـ ولك ... يوجد في هذا البلد شيء اسمه قانون العمل .

أقسم بالله ، لو سمعه شاكر بيك لأمسكه من قبة قميصه ورماه خارج المصنع . ولكن الاسطة نوري « زودها » كثيراً . حيث انه بدأ عادة جديدة وصار يردد :

ـ نريد إضافة عمل مسائية .

وعندما كنا نوجهه قائلين :

ـ تعال يا رجل ... اسكت ... تأدب ...

كان كلامنا يدخل من إحدى اذنيه ليخرج من الاخرى دون ادنى فائدة .

وباختصار يا سيدي ، قلب هذا المخرب معملنا الجميل رأساً على عقب . وفي نهاية الأمر سمع شاكر بيك بأحاديث هذا المخرب . ولكن ما ادهشنا هو صمته حيال ذلك . ومع مرور الزمن وتعاقب الأيام ازداد كلام الأسطة نوري . وفي هذه المرة طلب قائلاً :

ـ يجب ان تكون وجبة طعام الغداء على حساب المعمل .

ما لا شك فيه ، ان طلبه ليس الغداء وحسب بل يهدف إلى إثارة القلاقل والتوتر في المعمل . ومن يدري إن كان لا يخطط بأن يطلب نساءً في المرة القادمة .

لم نكن نحب أن يسمع معلمنا بما يتفوه به هذا المخرب المجنون . كما أن هذا الكلام لا يشجع أحداً على نقله .

لقد أخذه خمسة مفتشين في إحدى المرات وأعادوه الى العمل بعد استجوابه ، ولكن ما كان يدهشنا ويحيرنا هو : لماذا لم يطرده صاحب المعمل .من هنااتضح لنا مدى طيبة قلب صاحب المعمل ، لا شك أنه فكر بأطفال هذا المخرب الذين سيموتون جوعاً إذا ما طرد والدهم من المعمل .

ولكن شخصاً كهذا لا يمكن احتماله بأي حال من الأحوال . فهذه المرة بدا بطلب جديد :

ــ أماكن العمل تعاني من سوء الشروط الصحية .

يا أخي أنا لا أشك مطلقاً بجنون هذا الرجل ، ولك يا بن الكلب ، إذا طُردتَ من هنا هل ستجد شروطاً أفضل في مكانٍ آخر ؟ أم انك ستجلس في زوايا المقاهي ثم هل هذا مكان عمل أم فندق سياحي ؟!.

وعندما قلنا له « يا أسطه نوري .. لا تتكلم ... لا تشاغب ... »

وبخنا قائلاً :

ــ ولك ... يوجد قانون في هذا البلد .

ــ يا صديقي .. ومن ينفي وجود القوانين ... طبعاً القوانين موجودة .

لكنه كان يظن .. انهم سنّوا قوانيناً خاصة للأسطة نوري .

كل كلامنا كان يذهب ادراج الرياح ، ولكن ما لم نفهمه هو عدم استعمال شاكر بيك سلطته لطرد هذا الرجل من عمله .

إذا أخذنا ما قاله الأسطة فخري حول هذا الموضوع بعين الاعتبار ، فاننا سنقر وبلا أدنى شك بأن هذا الرجل مخرب ولكنه مع ذلك كان خبيراً بكل شيء . ولهذا لم يكن باستطاعته صاحب المعمل التخلي عن هذه الخبرة . فقد كانت خبرته تفوق التصور والخيال . عندما كان يعطل المقسم كان يصلحه وعندما كانت تعطل آلة الخراطة كان يصلحها بلمح البصر . وكذلك شبكة الكهرباء ، وأعمال التسوية . وكان هذا الرجل ولد من بطن امه وهو يحمل بيديه المثقب ومفك البراغي والمفاتيح. في إحدى المرات تعطلت إحدى الآلات في المصنع ، وعرضت على معظم المهندسين في العالم ولكنهم عجزوا عن إصلاحها . جاء الخبراء من المانيا واحضروا خبراء من بلد المنشأ ولم يستطيعوا إصلاحها وبعد ذلك جاء المخرب نوري وقال :

ــ انا سأصلحها . . . وبغمضة عين اصلح الآلة وخرج علماً انه لم يضع اية قطعة جديدة . فتح المسننات وصب السائل على البسطون وركّب قطعة قديمة ، وفي الليل كانت الآلة المعطلة تعمل بشكل ممتاز . اعط هذا الرجل مدفأة خشب يسلمك إياها آلة نفاثة لاتفرقها عن صنع المصنع . كل هذا الكلام صحيح وجيد ولكنه يعبر عن الوجه الايجابي لشخصية هذا المخرب . وأما الوجه السلبي في شخصيته !! . . . اجتمعنا نحن الأصدقاء في إحدى المرات وقلنا :

ــ الا يوجد سلطة في هذا البلد لنشتكي على هذا الرجل ؟

ذهبنا الى المدير العام وأخبرناه بكل شيء ولكن المدير ملّ من هذه الشكاوي واسوء ما حدث في الأيام الأخيرة أنه أصبح مهملاً في عمله ، والمدير العام ، من جهة ، يندب حظه . . ومن جهة أخرى يقف بصف الأسطة نوري ولا يطرده من عمله في هذه الأثناء وعندما كنا في استراحة الغداء حدثت تلك الحادثة . سمعنا انفجاراً قوياً كسر زجاج النوافذ على اثره . فتفرقنا في كل الاتجاهات ونحن نتساءل عما يجري في

المعمل . وفجأة رأينا الدخـــان يتصاعد من كسارة المعمل ، وبعد ذلك حدثت انفجارات متتاليـــة فلم يكن باستطاعتنا فعـــل أي شيء سوى الهرب . وبعد أن عمّ الهدوء في المعمل ، بعد فترة لم تكن قصيرة ، نظرنا الى مكان الفرن . ولكننا لم نجد فرناً ولا كسارة ، لقد تحوّل كل شيء الى رمادٍ يتطاير في الهواء . بعد ذلك ، جاء المدير وهو يهز رأسه يمنةً وشمالاً ويضرب كفاً بكف ، قال وهو يندب :

ـ يا إلهي ... يا إلهي ...

وكعادته عندما يمرُّ بأزمةٍ قال :

ـ اين الأسطة نوري ... اين الأسطة نوري .. وبعد قليل :

ـ أوجدوا الأسطة نوري واحضروه الى هنا فوراً .

ثم اتجه الى غرفته .

إن باستطاعة الأسطة نوري إصلاح الفرن والكسّارة خلال اسبوع واحد وإذا لم يستطع فلن يتمكن المصنع من مباشرة العمل خلال أشهر عديدة . إن الأسطة نوري ، هو الرجل الوحيد الذي بإستطاعته تجهيز المعمل ، بدون كسارة او فرن .

ولكنهم لم يجدوا الأسطة نوري ، رغم البحث المضني ، في البيت.. غير موجود ، في المقهى ... غير موجود ... غير موجود ..

قال الأسطة فخري .

ـ ولك هل طار قليل الشرف هذا ؟.

اجابه عامل الكسارة نيازي :

ـ نعم ، لقد طار .

ـ وكيف طار ؟

ـ من المؤكد انني لم أره وهو يطير ، ولكن وبما انه لم يبق حجر فوق حجر في الفرن ، فلا شك ان الأسطة نوري قد طار . عندما تعطل الفرن ناديت للأسطة نوري كي يصلحه ، فكر قليلاً ثم بدأ بالعمل . في البداية ارسلني لأنادي للصانع كوسكو . وبعد ذلك ذهبت لأخبر المهندس بما جرى . وفي هذه الاثناء انفجر الفرن . ولو اننا بقينا في الفرن لطرنا نحن أيضا .

بحثنا عنه حتى المساء آملين ان يكون قد نجا من الحادثة ولما لم نجده اخبرنا المدير بذلك :

ـ يا سيدي بالنسبة للأسطة نوري حياتك الدائمة .

عندما سمع الخبر ، تنفس الصعداء واستلقى على مقعده وهو في غاية السرور :

ـ اوهههه . . . الحمد لله . صحيح أننا خسرنا الكسارة ولكننا بالمقابل ارتحنا من بلاء عظيم . على كل حال يمكن اصلاح الفرن والكسارة . المهم انني ارتحت من هذه المصيبة الكبرى .

وبعد أن انهى كلامه . نظر إلينا ، فاستدرك قائلاً :

ـ أرجو ان يبقى هذا الكلام بيننا ، لا اريد أن يسمع به أحد .

قال الأسطة فخري :

ـ رب ضارة نافعة يا سيدي ، إن موته لشيء رائع .

قــال المــدير :

ـ اعرف بأن موتــه شيء رائع ، ولكني لا اريــد أن يسمع احــد بمــا قلتــه .

وفي اليوم التالي ، أكد المدير العام :

ـ أريد أن تجدوا الأسطة نوري ، سنقيم له حفل تأبين .

بحثنا ... وبحثت الشرطة أيضا ، ولكننا لم نجد اي اثر للجسد .

قــال المــدير :

ـ اوجدوا اي شيء ، ذراع أو رجل أو اي شيء آخر .

بحثنا اسبوعاً بأكمله ، دعك من ايجاد رجلٍ أو زراع ، لم نجــد حتى ظفراً من اظافره .

قــال المــدير :

ـ لا اعتقد أن هذا الرجل قد تحول الى دخان وطار في الفضاء ، لا بد أن يكون قد بقي شيءٌ منه ، أحضروا لي أي شيء تجدونه .

قلت للأسطة فخري :

ـ ياأخي ، ما أعرفه عن مديرنا انه كان يكره الأسطة نوري كرهاً شديداً ، فلماذا إذاً يريدنا أن نبحث عن شعرةٍ من شعره ، أو ظفــر من أظافره .

قال الأسطة فخري :

الأمر هنا مختلف تماما . إن شاكر بيك رجل اعمال ويريد ان يقيم حفل تابين لأحد عماله . كي تتناقل الألسن هذا الخبر وليكون هـذا الحفل دليلا يقدمه ضد كل من يقول إن شاكر بيك لايحب عماله .

أعلن المدير العام :

ــ ستقدم مكافاة وقدرها مئة ليرة لكل من يجد أثراً مـن جسـد الاسطة نوري . وعلى اثر ذلك بدء البحث الدقيق . وماذا وجدوا في النهاية ؟! إن تربيتي لا تسمح لي بذكر مثل هكذا كلمات .. لقدوجدوا .. العضو التناسلي للأسطة نوري محصوراً بين حجرين . ولكننا لم نستطع التاكد فيما إذا كان هذا العضو له أم لا . ولكن لمن سيكون . إنه عضو وليس منديلا وقع من جيب احد العمال التوبة يا ربي .. لا شك أنه للأسطـة كثـيراً ماتـرددت عبـارة « وإذا لـم يكـن هـذا العضـو الأسطة نوري ... » مـن يـدري ؟!.. قالـت زوجتـه : « لا أستطيع أن انظر إليه .. قلبي لايحتمل » . وبعد ذلك جاء طبيب البلدية والطبيب الشرعي وبعد المعاينة . أخذ الامر بالدفن كنا عدة أشخاص على دراية بهذا الموضوع . ولذلك نادانا المدير العام وقال :

ــ ارجو الا يعرف احد بهذا الأمر . وليعرف كل الناس أن الشيء الذي في التابوت هو جسد الأسطة نوري وليس شيئاً آخر . سنضع ثقلا ما في التابوت كي لايشك احد بالامر .

غسله الإمام ووضعه في التابوت ثم جاء كل عمال المصنع إلـى الجامع الذي سيدفن فيه وكم كان الجامع مزدحماً ، فقد جاء كبار رجال الأعمال . واجتمع الصحفيون والمفتشون كانت عينا المدير العـام اشبه ماتكون بصنبوري ماء . وبعـد ان اقام الإمام صلاة الجنـازة والدعـاء قـال :

ــ هيا ياجماعة . ماذا عرفتم عن المرحوم في حياته ؟.

لم يستطع المدير منع نفسه ، فركع فوق التابوت وبدأ بالبكاء :

ــ آه يا أخي نوري ... لقد ذهبت انت أيضاً .. ماذا سأفعل من بعدك ... آه يا نوري ولم يكفه ذلك ، بل تابع :

ــ افتحوا التابوت أريد أن أقبل صديقي قبله الوداع ..

يالإلهي ماذا يجري هنا ؟! هل جن مديرنا ؟ ثم ماالذي يريدتقبيله؟!

ــ لا يمكن ذلك ..

أبعدوه عن التابوت .

فقال وهو يضرب نفسه :

ــ إذاً ، دعوني ألقي آخر نظرة عليه .

كل ما استطعت فهمه هو أن مديرنا قد نسي ، في هذا الهيجان ، الشيء الذي وضعناه في التابوت .

أخـذنا التابوت إلى القبر الذي سيدفن فيه ، وبعد أن دفنـا التابوت في القبر وقف المدير على تراب القبر الرطب وبدأ يتكلم وهويبكي:

ــ نوري .. يانوري .. لقد كنت سندي .. خسرتك أنت أيضاً ، لكني لن أنساك مادمت حياً ، ستعيش في قلوبنا ، لقد كنت مجداً في عملك ، كم كان راسك طرياً ومرناً .. وتسمع الكلمة .. يانوري .

نظرت إلى الأسطة فخري الذي كان بجانبي ، وقلت له :

ــ ياصديقي .. هل نسي مديرناز ماهو موجود في التابوت ؟

ــ وكيف ينسى ذلك ؟

ـ إذاً مامعنى هذه الكلمات ؟ إن مايفعله ليس عيباً وحسب ، بل وحراماً أيضا ان يقول الإنسان هذه الكلمات للشيء الذي في التابوت .

ـ يا أخي .. انت لاتفهم مثل هذه المواقف . إن الموقف يتطلب ذلك .

ـ وأنت .. لماذا تبكي ...؟

ـ وهل باستطاعة العين والقلب ان يحتملا سماع هذه العبارات المؤثرة ...؟.

انتهت مراسيم الجنازة . ورجعنا من المقبرة ، قال احد العمال :

ـ لو أتأكد انهم سيقيمون لي مراسيم كهذه عندما اموت فلن آسف على موتي .

ـ وقال آخر :

ـ يا أخي ، كم احب ان افدي مديرنا بروحي ..

ـ إنه يستحق ، الروح فداؤه ...

رجعنا إلى المصنع ودخلنا إلى غرفة المدير ، فخاطبنا قائلا :

ـ لقد تخلصنا من هذه المصيبة بأرخص ثمن ..

إن مديرنا رجل اعمال كبير وعظيم ، والكن المسكين لاحول له ولا قوة فقد ولد في بلد متخلف لايعرف قيمة عظمائه .

* * *

لا يوجد رجل بلا سكين

وقف رجل على باب بيتي وقال :

ـ أرجو ألا أكون قد سببت لك إزعاجاً ، أنا القاضي المتقاعد مخلص جراجلي من هيئة مجلس الحارة ، أعتقد بأنك سمعت برئيس المخفر الذي عيّن في مخفرنا حديثاً . في الحقيقة ، لقد سمعت به من خلال الأحاديث التي تدور على ألسنة أهل الحي ، وسمعت أيضاً عن جبروته وعن ضربه المبرّح لكل من يراجع المخفر ، ومع ذلك فقد أحببت إظهار عدم سماعي بهذا الخبر فقلت :

ـ كلا لم أسمع بـه .

ـ ياسيدي ، إنه رجل عدواني لا يتعامل إلاّ بالضرب والقتل ، لم يفسح مجالاً لأي شخص كي يحبه . في كل المخافر التي عيّن فيها . لذلك رفعت ضده ثماني عشرة قضية وذلك لأنه يضرب الناس ويعاملهم بقسوة ، أيعقل أن يعين رجل كهذا في مخفرنا ؟

. إن هذا الرجل يشرح لي وكأنني مدير الأمن ، تابع قائلاً :

ـ إننا نعيش في حارة نظيفة ، وجوارنا رائع وآمن ، فمنذ سنين لم تقع في هذه الحارة أية حادثة . ولهذا قررنا نحن أهالي هذه الحارة أن نجمع التواقيع كي ينقل هذا المحقق من مخفرنا ، لقد ذهب بعض الأصدقاء الى بيوت الحارات المجاورة ، وبعد ذلك سنضم التواقيع الى بعضها ونرسلها الى وزير الداخلية . سيصبح طول العريضة مئة متر ..... ها هي العريضة ، إلى الآن أكون قد حصلت على سبعين توقيعاً ... أرجو أن توقّع أنت أيضاً .

والآن ، ماذا عليّ أن أفعل ؟ كل حجر أرميه في الماء لا شك ستصيبني آثاره ليحيا ألف مرة المفتش الذي لا يزعجني . ولكن إن لم أوقع سيتهمني أهل الحارة بالجبن . ماذا ؟ هل أنا جبان ؟ أخذت العريضة ووقعت عليها ، ولكنني لم أوقع توقيعي الأصلي بل قلدته وذلك كي أبعد الشبهة عن نفسي . لقد أصبح التوقيع كأنه لي وليس لي . فإذا عاكستني الظروف في المستقبل ، وسألوني : « هل هذا توقيعك ؟ » . سأجيب على الفور : « كلا ليس لي » .

لندع المحقق الآن ولنتحدث عن الحادثة التي وقعت في تلك الليلة :

في إحدى الأمسيات وأنا جالس أتناول طعام العشاء ، ركضت الى الشارع إثر صراخ إمرأة . نظرت أمام باب بيتي ، فرأيت شابين قطعا طريق إحدى السيارات محاولين اختطاف امرأتين من السيارة . أيمكن أن تصل الوقاحة الى هذا الحد ؟ حادثة اختطاف في وسط البلد وفي وضح النهار . عندما رأياني قادماً نحوهما حاولا الهرب ولكني أمسكت بأحد الشابين ، لا تعتقدوا بأنني أمسكت به بسبب قوتي ، لا لا ... بل لأنه أصغر مني بكثير . حاول أن يتخلص من بين يدي كسمكة تحاول التخلص من الصنارة ولكن دون فائدة .

قالت المرأة وهي تبكي :

ــ لقد جرحت .

لمعت سكين بيده إثر انعكاس ضوء السيارة عليها ، فصرخت به قائلاً :

ــ هيا الى المخفر .

حالما صرخت به أدركت خطورة ما أقوم به ، لأن رئيس المخفر ، كما يقولون ، لا يضرب المتهم وحسب ، بل والمدعي أيضاً ، وقد لا يتوقف عند

هذا الحد ، بل يعتقل ما استطاع من المارين ، ويأخذهم الى القسم ويسألهم : « ماذا فعلتم ضد الدولة ؟ » . ويعتقلهم بعد أن يشبعهم ضرباً . لولا هذه المرأة المجروحة التي ينزف الدم من كتفها ، لصفعت هذا الرجل كفين وتركته يذهب لحال سبيله ، والكن لا حول لي ولا قوة.

ذهبنا جميعنا الى المخفر ، وقفنا أمام رئيس المخفر الذي أستطيع تلخيص منظره بكلمة واحدة : « مرعب » ، لا يوجد لديه رقبة بل عبارة عن راس موضوع فوق جسم ضخم .

بعد أن شرحت له الحادثة ، التفت الى المتهم وسأله :

ـ ما ذاحدث ؟!

ـ لا شيء ياسيدي ، بينما أمشي في حال سبيلي في الشارع أمسك بي هذا الرجل وقادني الى هنا .

كان واضحاً من لهجة هذا الشاب أنه كارا دنيزلي[1] .

قال المفتش :

ـ لا تطيل الحديث، هيا أخرج السكين .

ـ اية سكين ؟! انا لا أملك سكيناً ، أستغفر الله ، أنا لا أحمل سكيناً .

فتشه الشرطي ولكنه لم يجد سكيناً ، بل وجد غمداً موجوداً في نطاقه . أخذ المحقق الغمد وسأله :

ـ ما هذا ؟

---

١ ـ كارادنيزلي : لقب يطلق على سكان المدن الواقعة على ساحل البحر الاسود وهذه الكلمة مؤلفة من مقطعين : كارا (أسود) + دنيز (بحر) .

لم يعره الكاردنيزلي اي انتباه ، بل أجاب ببرود :

ــ إنــه غمد يا سيدي .

ــ لكنك قلت أنك لا تحمل سكيناً .

ــ فعلاً ، أنا لا أحمل سكيناً ، ولا أستعملها .

بدأ غضب المحقق يزداد شيئاً فشيئاً .

ــ وَلَكْ ما هذا ؟!

ــ إنه غمد يا سيدي .

ــ اسمعني جيداً ولا تخرجني عن طوري ، وإلا ستندم ، أسألك : ما هــذا ؟

ــ إنه غمد يا سيدي ، اسأل من تريد ، إن كنت لا تصدقني ، لــن أخفي ، ما يعرفه الله ، عن عبيده ، أقسم بالله انه غمد .

حقيقة ، ندمت كثيراً لأنني أحضرت هذا الشاب الى هنا ، لا شك بأن المحقق لن يخرجه من هنا سليماً معافى .

ــ ولك ، أيُحْمَلْ الغمد بلا سكين ؟.

ــ نعــم ، يُحمل .

ــ لا يُحمَــلْ .

ــ أنا أحمله ، لا دخل لأحد بهذا ، أهو ممنوع . ؟! .

احمرّت عينا المحقق وصارت يداه ترتجفان ، الحقيقة تقال ، إنه رجل صبور للغاية .

ـ حسناً ، أين السكين التي كانت داخل هذا الغمد ؟

ـ أقول لك ، لا أملك سكيناً ، الا تفهمني ؟!..

ـ التوبة يا ربي ، يا أخي لا تجنونني ، ماذا تضع داخل الغمد ؟

ـ لا أضع شيئاً ، أتركه فارغاً .

بدأ المحقق بقضم أظافر يده اليمنى من شدة غضبه ، وضرب باليد اليسرى على الطاولة بقوة ، وصرخ فجأة :

ـ حسناً ، لا يُباع الغمد فارغاً ، قل لي من أين حصلت على هـذا الغمـد ؟

قال الكارادينزلي :

ـ لا .. لم أشتريه .

ـ إذاً ، فقد سرقته .

ـ لم أسرقه .

استحوذ الغضب على المحقق ، فصرخ :

ـ تكلمّ .... تكلم ....

ـ إنه هدية يا سيدي ، لقد أهداني إياه أحد الأصدقاء .

ـ ما اسم صديقك هذا ؟

ـ اسمه حسن ، قال لي : « ليبق ذكرى معك ، تذكرني كلما نظرت إليـه . » .

قال المحقق للشرطة :

ـ ارموه في القبـو .

أخذوا الكارادينزلي ، لقد أعجبت بهـذ الصبر الذي يتحلى بـه المحقق الذي يتحدثون عن جبروته وعن ظلمه . لو أن الذي يحقق مع هذا الرجل حجر لتحطم .

بعد ذلك تناولنا أطراف الحديث أنا والمحقق ، قال :

ـ كيف ستتعامل مع هذا الرجل إن لم تضربه ، قولوا لي بحق الله ، كيف يعامل شخص كهذا، طعن المرأة ، ويحمل غمداً، ولكن كيف سأقدمه الى المحكمة إن لم أجد السكين .

لقد عرفت الكثير عنه من خلال حديثه ، رفع ضده الى الآن ثماني عشر قضية نتيجة لجوئه الى الضرب أثناء التحقيقات التي لم يغلق محضر أي منها ضد مجهول .

أجرى دورة في امريكا ونال عدة جوائز وأوسمة . ولهذا لم تشأ السلطة معاقبته فاستدعاه مدير الأمن وقال له : «اعتباراً من هذا اليوم، لا أريدك أن تضرب أحداً من المواطنين . إن أفضل ما يمكن أن أقدمه الك الآن هو تعيينك في أحد المخافر ، ولكن إذا أتت أي شكوى ضدك مـن المواطنين فلن أنقذك ، بل سأقدم كل الأدلة التي أملكها ضدك للمحكمة » .

قال المحقق :

ـ لولا هذا الانذار ، لكان باستطاعتي أن أجعله يتكلم مثل الببغاء . ولكن أخ أخ أخ ... ما باليد حيلة . لقمة العيش من جهة ومهنتي مـن جهة ثانيـة والأولاد ...

كانت الشرطة تبحث عن صديق المتهم اثنـاء حديث المحقق ، وفي النهاية وجدوه في الميناء وتم إحضاره الى مكتب المحقق .

أدار المحقق وجه القادم الجديد نحو الجدار وقال له :

ـ قف هكذا ، ولا تلتفت الى الوراء .

وبعد ذلك أمر بإحضار المتهم وأدار رأسه نحو الجـدار ، سـأل المحقق القادم الجديد :

ـ هل قدمت لصديقك هذا اية هدية ؟.

قال المتهم قبل أن ينتظر جواب صديقه :

ـ نعـم .

ـ اخرس انت . ثم وجه كلامه لحسن ...

ـ هل قدمت له هديـة ؟

ـ ربما اكون قد قدمت له هدية ، لا أذكر الآن .

صـاح المتهـم :

ـ والك يا حسن ألم تعطني الغمد ؟!

ـ اخرس ولك / أظهر الغمد لحسن / هل أعطيته هذا ؟

ـ لا يا سيدي ، لم اعطه .

بدآ بالجدال ، وكل منهما رأسه متجه نحو الجدار الذي أمامه .

ـ ولك يا حسن ، انت أعطيتني إياه يا أخي ، انا داخل عليك ... الم تعطني الغمد ؟!

قل ، إنني أحلفك بدينك ... وبإيمانك .. انت أعطيتني الغمد أليس كذلك ؟

ـ لم اعطك شيئاً .

ـ انت لا تتذكر يا أخي ... لقد نسيت أليس كذلك ؟ هذا هو حال الانسان لقد أعطيتني الغمد ولكنك نسيت .

ـ يا اخي ومتى أعطيتك إياه ؟

ـ أعطيتني ، اعطيتني يا اخي ، انت أعطيتني الغمد عندما التقينا في الشارع قلت لي : خذ هذا كي تتذكرني كلما رأيته ، إني متأكد ... هذه إفادتنا .

في هذه المرة ، انزل المحقق المتهم الى القبو ، كنا موجودين ، ثلاثة شرطة والحارس وانا . قال المحقق :

ـ ضعوه في الدولاب / الفلقة / .

وضعوا المتهم وربطوا رجليه بالحبل ، ركع المحقق امامه وصار يتوسل إليه :

ـ يا بني ... يا ولدي .. يا حبيبي ، قل لي الحقيقة ، أين السكين ؟ أين رميتها .؟ أقسمت يميناً للمدير العام على الا أضرب احداً . لقد اقسمت يميناً .. هيا يا بني .

ـ انا لا استعمل السكين ، استعمل الغمد فقط ، هذه هي إفادتي .

ـ لا تعاند يا بني .. سأضربك .

ـ اقتلني إن شئت . لا يوجد معي سكين ، استعمل الغمد فقط ، هذه هي إفادتي .

وبداوا بالضرب .. اضرب .. اضرب ... اضرب .. رجل بحجم الدجاجة ولا يزن أكثر من خمسين كيلو غراماً ومع ذلك لم يفتح فمه ولم يصرخ ، لا أستطيع وصف تلك الضربات التي كانت تنزل على جسده . أوقف المحقق الضرب وبدأ يتوسل من جديد :

ـ يا أخي .. اشفق على نفسك ، اقسم بالله أنا لا أريد أن أضربك، فقط قل لي أين رميت السكين ؟.

لا يقول ... ويعود الضرب من جديد ، لم أحتمل أنا أيضاً فبدأت أتوسل إليه :

ـ أنا رأيت السكين بيدك ، وسأكون شاهداً في المحكمة ... هيا قل يا أخي .

ـ لم تكن سكيناً بل غمداً .

ظهرت خطوط حمراء على رجليه الحافيتين من كثرة الضرب عليهما بالعصا ، طلبوا منه أن يمشي ، ثم أن يركض وذلك كي تختفي آثار الضرب كي لا يذهب الى الطبيب ويأخذ منه تقريراً طبياً . ومن جديد القوه على الأرض وبدأوا بالضرب .

لو انهالت هذه العصي على ثلاثين رجلاً لأغمتهم ، وهذا الصغير ما زال يردد « غمد ، غمد » ولم يقل أي شيء آخر . الشرطة تتوسل ، أنا أتوسل والمحقق يتوسل ، حقيقةً بدأنا نشفق عليه . وصل المحقق الى ذروة غضبه فقال : أوقفوه على رجليه . وانهال على وجهه هذه المرة وكلما نال لكمة كان يقول :

ـ الذي كان معي غمداً وليس سكيناً ... هذه افادتي .

والمحقق يقول :

ـ ولك .... حتى لو كان الغمد فارغا يعترف الانسان بوجود السكين كي يتخلص من الضرب .

ـ إنه غمد يا سيدي .

صار المحقق ذو الوجه الخشن يبكي ودموعه تسيل على خديه وهو يقــول :

ـ يا بني ، إن كنت لا تشفق على نفسك اشفق عليّ ، اشفق على أولادي نحن نعرف أنك طعنت المرأة ، اعترف بهذه الحقيقة ، أقسم انهم سيسرحونني من وظيفتي بسببك سيتدمر مستقبلي ...

وقعت بحيرة من أمري ، على أيٍّ منهما ساشفق ، على هذا المحقق أم على الكارادنيزلي ... المفتش يبكي بقسوة .

نظر الرجل الصغير ... القصير ... الكارادنيزلي الضعيف ، الى المحقق وقال :

ـ ما كنت ساعترف حتى لو موّتني من الضرب ، غير أني اشفقت عليك يا سيدي المحقق ، أشفقت على أولادك وعلى مستقبلك ولهذا ساعترف ، كان يوجد سكين داخل الغمد ، أنا أستعمل الغمد والسكين أيضا . وهل تعتقد بوجود رجل في هذا العالم بلا سكين ؟ لقد رميت سكيني عندما كان هذا الرجل يقودني الى هنا . لقد تكلمت لأنني اشفقت عليك يا سيدي .

وبعد ذلك ذهب مع اثنين من الشرطة واحضروا السكين ، لم يعد باستطاعة الكارا دنيزلي المشي أو الوقوف على رجليــه فسقط بجانب الجدار وهو يقول :

ـ اكتبوا إفادتي .. أيعقل أن يقال للرجل رجلاً إذا كان لا يملك سكينا . أيوجد رجل بلا سكين . طبعا يوجد معي سكين .

تعليمات حول حمـــل الأشخاص على الأكتاف

أحياناً يترك لنا ساعي البريد بين الرسائل والصحف والمجلات المرسلة إلينا بعض الرسائل المرسلة الى أشخاص آخرين ، وفي اليوم التالي أسلمها إليه .

أما بالنسبة للرسالة التي سأحدثكم عنها والتي سلمنا إياها ساعي البريد بالخطأ ، فقد مَزّقْتَ غلافها قبل أن أقرأ العنوان وقرأت محتواها ولسبب ما ، أدركت أنها ليست لي ، فقرأت العنوان على الغلاف حيث كان خاتم حزب العدالة عليه .

كانت هذه الرسالة عبارة عن تعميم أرسل الى منظمات المناطق .

انا أؤمن بأنه ليس من اللائق قراءة الرسـائل المبعوثة للآخرين ، ولكني وجدت أن هذه المعلومات القيّمة المطبوعة في التعميم تهم كـل المواطنين فلم أشأ حرمان المواطنين من هذه المعلومات ولهذا قررت نشر هذا التعميم على القراء الأعزاء لعلهم يستفيدون منه :

حزب العدالة .

القيادة العامة .

العدد : ٩٩٩٠٠١

٤ شباط ١٩٦٥

الى رئاسة منطقة ...... تم قراءة ودراسة الشكاوى التي أتت من تشكيلات بعض المدن والمناطق ، وتم أخذ بعض التوصيات في اجتماع الحزب الذي عقد في يوم .....

تجمع هذه الشكاوى حول بعض السلبيات التي تحدث في مؤتمرات المدن والمنــاطق وحتى في المؤتمر العام للحــزب ، حيث يُحمل بعض المندوبين والنواب على الأكتاف ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : وضع أحد أعضاء الحزب المتحمسين راسه بين رجلي أحد نواب مجلس الشعب المسنين ورفعه فوق كتفيه مما سبب حدوث أزمة قلبية للنائب العجوز بسبب الخوف الذي ألمّ به .

أيضاً هناك شكوى حول حادثة وقعت في إحدى المؤتمرات حيث تقدم أحد الحزبيين المتحمسين من أحد النواب وأدخل رأسه بين رجليه ورفعه على كتفيه مما أدى بالنائب الى فقدان توازنه ووقوعه أرضاً . ضبعاً من المخجل وقوع أحد النواب على الأرض نتيجة فقدان توازنه مما يؤدي الى افساد الطابع الجدي للمؤتمر ولهذا فإن حزبنا يستنكر مثل هذه الحركات .

ومما يفسد الطابع الجَدي للمؤتمر أيضاً ، قول أحد النواب الذين يتدغدغون من جراء ملامسة اجسادهم لأحد الحزبيين المتحمسين الذين يحاولون وضع رأسهم بين أرجل النائب : « أتركني وَلَكْ . . . »

ولهذا يجب على الحزبيين المتحمسين أخذ عامل الدغدغة التي يعاني منها بعض الأشخاص بعين الاعتبار قبل ان يحاولوا رفع النواب على أكتافهـم .

كما انه من غير المستحب حمل بعض النساء النائبات في المجلس أو النساء المندوبات الموجودات في حزبنا . فكما نعتقد أن منظر المرأة وهي تقف على أكتاف أحد الرجال أو تجلس على كتفيه وقد برز رأسه من بين رجليها منظر غير لائق .

فيجب على الحزبيين الـذين يريدون حمل النسـاء أخذ كل هذه الأمور بعين الاعتبار . كما أثبتت التحقيقات التي قمنا بها أن هناك أشخاصاً من أحــزاب يسارية يتسللون الى مؤتمراتنا بقصد إفساد الطابع الجدي للنقاشات كما تبين لنا ان الرجل الذي وضع رأسه بين فخذي إحدى المندوبات ورفعها على كتفيه رغم قولها له « لا . . . لا تفعل أرجوك » كان رجلاً يسارياً قد تسلل الى مؤتمر حزبنا بقصد التخريب.

كما تبين لنا أن هناك بعض المخربين الذين يتظاهرون بعضويتهم في حزبنا ويقومون بحمل النواب على أكتافهم ويدغدغونهم من الاسفل .

لذلك رأينا أن هذه الأسباب هي التي تعطي جواً من التوتر والكهربة للاجتماعات أثناء مناقشة بعض قضايا الوطن المهمة مما يؤدي الى حدوث ضحك وقهقهة عند النواب . في كل هذه الحالات تقع حوادث مؤسفة جـداً .

بداية نقول : في احدى المؤتمرات وبالرغم من ممانعة أحد النواب فقد حمل على الأكتاف وكان نتيجة ذلك حدوث فتاق عند السيد النائب.

لقد تحدثنا عن بعض الحالات فقط لاننا وجدنا أنه من غير اللائق الحديث عن حالات أخرى كثيرة . ولذلك اجتمعت القيادة العامة للحزب وتوصلت الى بعض التوصيات بهذا الشأن ، فقد ارتأى بعض الأعضاء منع حالات رفع النواب على الأكتاف غير أن التحقيقات والدراسات التي أجرتها القيادة العامة أكدت على أن رفع النواب على الأكتاف يعبر عن نوع من الديموقراطية التي نحن حريصون جداً على سلامتها . ولهذا قررت القيادة العامة باستمرار حمل النواب على الاكتاف واعتبرته حقاً من حقوق أعضاء الحزب ولكنها وضعت بعض التدابير اللازمة لذلك نوجزها فيما يلي :

١ ـ يجب اخذ موافقة الشخص الذي سيرفع على الأكتاف قبل القيام بحمله منعاً لوقوع الحوادث .

٢ ـ يجب ان يسجل اسم الحامل والمحمول قبل عملية الحمل ، لأنه إذا قام أحد الحزبيين قصار القامة برفع احد النواب طوال القامة فإن ذلك سيؤدي الى ملامسة أرجل النائب الأرض وهذا منظر غير لائق، والعكس صحيح ، أي أن يحمل أحد الحزبيين طويلي القامة نائباً قصير القامة يؤدي ذلك الى ظهور النائب بمنظر مضحك ، كفراشة فوق عمود مرتفع .

ولهذا يجب أخذ نسب الطول والعرض بين الحامل والمحمول بعين الاعتبار ، إذ أن عدم وجود التناسب بين الأجسام يؤدي الى وقوع حوادث مؤسفة .

ومنها محاولة حزبي متحمس نحيل لحمل نائب بدين على كتفيه فما أن وضع رأسه بين رجليه حتى انقطعت أنفاسه وأغمي عليه .

٣ ـ يجب أن يتم تسجيل الشخص الذي سيَحمل وبجانب اسمه يسجل اسم الشخص الذي سيُحمَل ، فقد حدثت حوادث مؤسفة نتيجة هجوم عدة أشخاص متحمسين على نائب واحد يريدون حمله مما أدى الى حدوث ازدحام وسقوط وإغماء بعض الأشخاص .

٤ ـ لقد أثبتت التجارب أن هناك بعض الأشخاص الذين يعانون من أمراض معينة كالفتاق مثلاً ، وهناك البعض الآخر من النواب المسنين الذين لا يحتملون الجلوس فوق الأكتاف ، فإذا ما أجبر هؤلاء النواب على جلوسهم فوق الأكتاف قد يؤدي ذلك الى وقوع حوادث مؤلمة جداً .

٥ ــ يجب أخذ موافقة الأشخاص الذين يتأثرون بالدغدغة ، كما نوصي النواب الذين سيرفعون بلف أقدامهم بقطعة قماش سميكة جداً منعاً لحدوث الدغدغة .

٦ ــ منعاً للفوضى ، كأن يدس أحد الأعضاء المتحمسين رأسه بشكل مفاجىء بين رجلي أحد النواب ليضعه فوق كتفيه ، ارتأينا وضع برنامج يبيّن لمن ، ومن ، ومتى ، وأين سيتم الرفع على الكتفين وخوفاً من فقدان توازن بعض النواب المحمولين مما يؤدي الى وقوع النائب ارضاً يوضع عدة أشخاص حوله من اليمين واليسار والأمام والخلف .

٧ ــ أما بالنسبة للشخص الذي سيحمل على الأكتاف فيجب أن يباعد بين ساقيه ، وتعتبر هذه الوقفه إشارة للذي خلفه معناها أنه مستعد لأن يحمل ، وينتظر بعد ذلك وهو على هذه الحالة .

إن التجارب التي أجريت بهذا الخصوص أعطت نتائج مرضية لأنه عندما يجد الشخص الذي في الخلف النائب الذي أمامه مباعداً بين ساقيه ، سيدخل رأسه بينهما دون إضاعة للوقت ويرفعه فوق كتفيه ، وهناك نقطة هامة يجب الوقوف عندها ، وهي : انه على الشخص الذي في الخلف الا يضيع الوقت كثيراً ويترك النائب الذي أمامه مباعداً بين ساقيه لمدة طويلة لأن هذه الوقفة تعطي مجالاً للأعضاء الذين في الخلف لأن يفسروا هذه الوقفة تفسيراً خاطئاً .

٨ ــ يجب أن نلفت الانتباه ــ ونحن نقدم هذه التوصيات ــ الى نقطة هامه ، وهي أنه من المناسب جداً إجراء بروفات وتدريبات وذلك قبل المؤتمر بوقت مناسب ، ينصح بإجراء التدريبات على الحمل بين كل شخصين متناسبين في غرفة كبيرة أو في صالون كبير .

٩ ــ لا يجد حزبنا أية ضرورة لرفع النساء فوق الأكتاف ، أما إذا أرادت النساء ذلك ، فإننا نوصي بأخذ التدابير اللازمــة بخصوص

الثياب الداخلية والكيلوتات ، وعلى العموم فلسنا مسؤولين عن الاضرار التي قد تحدث .

اتخذ قرار بضرورة وصول هذا التعميم الى كل أعضاء الحزب من القيادة العامة وحتى أعضاء أسفل الهرم الحزبي .

التوقيع :

الشاهد والغازي

المعروف نيازي

التوقيع :

صاحب البنايه والخان

ابنكم أحمد نورمان

التوقيع :

عاشق الملكيه الخاصة التي أساسها الغش

حضر أوغلو صتلمش

* * *

لــولا مستقبلي

سيدي العزيز ...

هانذا أعــرض عليك سيرتي الذاتية كتابة ، ماذا تفضلت ...؟ أتريدها مفصلة ...؟ على راسي ياسيدي سأعرضها بالتفصيل ، كيف..؟

فهمت .. تريد ادق التفصيلات ، ابتداء من أصغر الأمور ... نعم نعم ... فهمت ، لن اكتب سيرة ذاتية وحســب ، بـل سأكتب مذكرات ... على راسي ، على راسي ، لن اخفي شيء ... طبعاً .. دون ادنى شك ، حتى ادق الأمور سرية .. نعم .. نعم .. وبالتفصيل .. على راسي ياسيدي على راسي .

ولدت في بلدة « كنالي‌جه » ... اليس الى هذا الحد ؟! .. كمـا تريد يا سيدي .. على رأسي ، سأبدأ بأحداث اقرب ، .. نعم فهمت .. تريد الحوادث المهمة في حياتي يا سيد ... ها .. ؟

إن أول حادثة مهمة في حياتي هي المشاجرة التي وقعت بيني وبين زملائي عندما كنت طالباً في مدرسة « نومونا الترقي » / مثال الترقي /.

بما أنك تريد الحوادث الصحيحة ، فهانذا أكتب لك ... لقـد بدأ هذا الشجار بالضرب المبرح الذي تعرضت له مــن احمــد القزم ، لا : لا ... ما كنت سآكل تلك القَتْلَة من القزم احمد لولا وجود المعلم المناوب ، فليحمد الله وليدع للمعلم ... ذاك الولد الذي أسميناه القزم لصغر قامته . كان ذلك منذ حوالي . لحظة كي أتذكر .. أه .. نعم نعم ... منذ ستين عاماً كنت جالساً على مقعدي أراجع بعض الدروس ، حين لطمت كفاً على رقبتي ، الى الآن أتذكره ، وكأنه حدث اليــوم ، يومئذ احسست بأن الشرر يتطاير من عيني وقبل أن افتح فمي قال : « لماذا تضربني ولك .؟ » التفت الى الخلف فرأيت أحمد القزم ، قال

هذه العبارة واردفها بلكمة على وجهي ... آه يا سيدي .. ؛ لست أدري كيف لقزم كهذا ان يخرج لكمة كهذه . قلت : ومن الذي يضرب ؟ فقال « أنت تضربني » ونبع كلماته بلكمة اخرى . صار طلاب الصف يقهقهون ، وعندما قلت له أصح على نفسك يا أخي . انا لم أضربك . لكمني لكمة على انفي . عفوا ... . فوقعت على مؤخرتي .

بدأ الدم يسيل من أنفي . وعندما قلت له : يا احمد لا تضرب ساشكيك المعلم . بدأ يكيل لي اللكمات بينما بقية الأصدقاء يضحكون ... فقلت : قولوا انتم ايها الأصدقاء . هل انا من يضربه ؟ فبدا باللكمات والكفوف على راسي وعلى وجهي وهو يقول : « أنت من تضربني » .

يا سيدي وانا ايضا كنت استطيع ان اضربه لولا وجود الأستاذ خالد بيك .. لولا خالد بيك لأخرجت أمعاءه .. آه ولكن ما باليد حيلة، فالاستاذ موجود ، اقسم بالله كنت استطيع أن ادوس هذا القزم برجلي لو لم يكن الأستاذ موجودا . والله لولا وجود المعلم لقتلته .

عندما ادركت أن هذه الحادثة لن تنتهي على خير ، هربت من الصف الى الحديقة ، وبذلك انقذت نفسي من يدي القزم أحمد . آه لولا وجود المعلم خالد بيك ... آه .. لكنت قتلته .

أما الحادثة الثانية والمهمة في حياتي يا سيدي ، فقد وقعت عندما كنت العب واصدقائي في ملعب الحارة . اعتقد أن عمري وقتئذ كان حوالي السادسة عشر ، كانت لعبة كرة القدم قد دخلت الى استانبول حديثا ، ضربت الكرة برجلي الى مرمى الخصم . كان يلعب معنا صبي ننادبه حقي العجل ، قال لي . عفواً انا أخجل من لفظ هذه الكلمات ــ قال لي « أيها الحقير » فقلت له .. « انت » عندئذ قفز عليّ وراح يضربني ...

يا سيدي . نحن تربينا تربية عائلية راقية . ولهذا لم استطع ضربه . صار يضرب ويضرب حتى اصبح وجهي مثل سوق الاربعاء ، كان

باستطاعتي أن أريه نجوم الظهر ولكن تربيتي لا تسمح بذلك اقسم بالله أنه كان باستطاعتي تمزيقه إرباً إرباً لولا تربيتي الرائعة، من..؟! أنا..؟ كنت سآكله ، لولا تربيتي العائلية الراقية .

من الحوادث التي أستطيع تذكرها أيضاً تلك التي حدثت عندما كنت في العشرين من عمري ، كنت في زمن المراهقة . كنا نلعب النرد في المقهى ، نسيت الآن اسم الذي كان يلعب معي ، فجأة حمل الطاولة وضربني بها على رأسي ، أحسست بالنجوم تتطاير أمام عيني ، دُهشت لما يحدث يا سيدي ... كنت سأضربه ، نعم سأضربه ... لولا وجود والدي ، وأنا أحترم والدي جداً فليحمد الله وليدع لوالدي ، لولا ذلك لأكلته لقمةً لقمة ... آاه لولا وجود والدي .

لم أفتح فمي خوفاً من وصول صوتي الى اذني والدي ، بعد ذلك ذهبت الى الصيدلية وضمدت رأسي. بعد ذلك يا سيدي، في يوم ربيعيّ، لن أنساه أبداً، كنت في عهد الشباب وتعرف ذلك العهد وغرامياته ،كانت تربطني في ذاك الوقت علاقة عاطفية مع إحدى الفتيات ، وكنت على وشك أن أطلبها للزواج من أهلها ،وفي إحدى الأمسيات ونحن نتمشى في الريف، هجم علينا رجلٌ من بين الأشجار ، امسك يد الفتاة محاولاً اختطافها ، ما رأيك يا سيدي ، هل أسمح له بها ؟! لو رأيته لأدركت انني أستطيع وبنفخة واحدة من فمي رميه أرضاً ، وبدأ الشجار بيننا غير انني كنت ألبس معطفاً ثقيلاً جداً منعني من ضربه ، آخ لولا وجود ذاك المعطف ، اكنت سأريه ماذا سأفعل به ، لكن ما باليد حيلة ، فالمعطف موجود ، .. لتبلى عينا المعطف بالعماء ، أخذ الرجل الفتاة من بين يديّ قسراً وغابا بين الأشجار ، والفتاة صارت تصرخ بدون ادنى خجل وتقول لي : تفوه عليك ، ... أي رجل أنت ؟ وكأنها لا ترى المعطف الذي ألبسه ، ولا تدرك مدى ثقله فقلت لها : لولا وجود المعطف ... ولكن ما باليد حيلة.

وبعد ذلك يا سيدي ، تعاقبت الأيام ، تزوجت وتوفي والدي ، أمد الله بعمرك ، كنا نسكن في بيت واحد ، أمي في الطابق الأرضي ، وأنا وزوجتي في الطابق الثاني لم يمض من عمر زواجنا سوى شهرين عندما

هجمت عليّ زوجتي ولسبب لا أعرفه وبدأت بقذف أي شيء تصادفه في طريقها على جسدي . وعندما لم يبق أي شيء أمامها قفزت عليّ كالديك ، وصارت تخمشني وتعضني . وأنا أقسم لك يا سيدي ، باستطاعتي رميها أرضا فقط لو وضعت يدي عليها دون أن أضربها ولكن فكرت . ماذا لو سمعت أمي ؟ آه لولا وجود أمي لضربتها ضرباً مبرحاً ... آه لولا وجود أمي الذي منعني من فتح فمي أو النطق بأية كلمة ، المهم بعد شهر من العلاج تم الطلاق بيننا .

وعلى هذا المنوال دخلت عامي الثلاثين ... الخامس والثلاثين . في منتصف إحدى الليالي استيقظت من نومي وقفزت من السرير على صوت ضجيج في البيت ، وإذ بلص دخل بيتي وراح يفتش الخزانة ، أقول لك الصدق يا سيدي ، لو علمت أنه لص لتظاهرت بالنوم ، ولكني قفزت بحركة لا إرادية وعندما رآني اللص هجم عليّ ، يا له من لص وقح يسرق البيت ويهجم على صاحبه . ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني ؟ ستضربه . حسن . أنا أيضا فكرت بذلك ، ولكن لو مات بيدي ماذا سأفعل ؟ هل يسامحني القانون ؟! آه لولا وجود القانون . وضع اللحاف على رأسي وكلما صرخت « النجدة » كان يزيد الضغط على رأسي وأخيراً لم يبق أمامي سوى التظاهر بالاختناق فأخذ الرجل كل محتويات البيت وذهب . ليدع هذا الرجل للقانون الذي أنقذه من بين يدي ، لولا القانون لوضعته تحت رجلي ولا أدعه حتى يصبح جثة هامدة .

بعد ذلك تزوجت من امرأة ثانية ، وفي يوم من الأيام كنت ذاهباً الى أنقرة لقضاء بعض الأعمال ولكنني لم الحق بالقطار فعدت الى البيت، دخلت بهدوء على رؤوس أصابعي كيلا أوقظ زوجتي من نومها . دخلت غرفة النوم — لقد طلبت مني الا أخفي سراً — نظرت الى السرير فرأيت حركات غريبة ، ويا ليتها انقضت بالحركات فقط بل وبالألفاظ التي أخجل من التفوه بها أمامك «يا روحي ، يا قلبي يا حبيبي ، يا حياتي..» لقد غلي الدم في عروقي . إنه الشرف يا سيدي . الشرف الذي لا يشبهه أي شيء آخر . مباشرة سأسحب مسدسي و .. «دان دان دان» سأقتل

الاثنين ، مسدس ؟! يا سيدي أنا لا أحمل مسدساً ، ... ليكن ، الانسان يعيش من أجل شرفه «دان دان» سأقتل الاثنين ... ولكن تعال وفي وقت كهذا ... في منتصف الليل ، ماذا بإمكانك أن تفعل ؟ سيستيقظ الجيران ويتساءلون عما يحدث ، آه لولا وجود الجيران ، لأرسلت الاثنين الى جنة الحمير ...

ولكن الجيران موجودون ، ليحمدا الله وليدعيا للجيران ... المهم تابعت طريقي على رؤوس أصابعي وخرجت من البيت .

نعم اعتقادك بمكانه ، كنت سأطلقها ، ولكني ما إن نويت ذلك حتى جاءنا ولد وتبعه آخر وهكذا ...

رحلنا الى بيتنا الصيفي ... وفي إحدى الأمسيات دخلت بيتي ، كانت زوجتي ، عفواً ، بوضع غير لائق ... نعم أمي الآن غير موجودة ، ولا يوجد جيران حولنا ، ولكن ... آه يا سيدي يوجد أطفال .. آه لولا وجود الأطفال ... عندما رآني الرجل ظن أني سأقتله فهجم عليّ وهو عارٍ فقلت له : « يا أخي البس ثيابك أولاً ثم تعال ... » ولكنه لا يفهم هجم عليّ .. آه لو لم يكن عارياً ... ولولا خوفي من ملامسة شيء من هنا أو شيء من هناك بأصابعي ، ولكن الرجل يضربني ، لولا زوجتي ولولا وجود الأطفال لكنت سأعرف ماذا سأفعل به ، ماذا سأفعل ؟! سأطلقها طبعاً ، ولكن آه ... طأطأت رأسي خوفاً على الأولاد . أمضينا أسبوعاً ، وبعد ذلك خرجنا قسراً ، آه ليحمدا الله وليدعيا لهؤلاء الأولاد فلولاهم لقتلت الاثنين .

وقعت حادثة مهمة أيضاً في الدائرة ، فلم يبق صنف من العذاب لم أذقه من المدير العام، حتى وصل به الأمر لدرجة أن يحقرني ويشتمني أمام الموظفين . لقد أصبح وضعي لا يحتمل ، في الحقيقة نويت أن أقدم شكوى ضد المدير العام ، ولكني أخاف من الله ... فقد يحرم من عمله ومن لقمة عيشه .. آه لولا خوفي من الله ، وفي يوم من الأيام بصق في وجهي قائلاً « تفووه » .

ماذا باستطاعتي أن افعل ؟! .. يوجد بيننا حاجز واحترام .

لقد ذقت العذاب على يدي هذا المدير لدرجة التي نويت قتله خنقاً . نعم كنت ساقتله ... ولكن ماذا لو قدموا ضدي شكوى . من المؤكد سيطردوني من العمل . يوجد في بيتي اطفال يتوجب علي تلبية احتياجاتهم ... آه يا سيدي لولا وجود الاطفال لما وقفت صامتا امام هذا المدير الظالم .

في أحد الايام جاءت امرأة من المراجعين وبجانبها طفل في الخامسة من عمره . لسبب من الأسباب رمتني المرأة بداوة الحبر ... ولكنهما اثنان وأنا واحد آه .. لو لم يكونا اثنين لعرفت ماذا سافعل بهما .. آه او لم تكن امرأة ...

على كل حال ... تقاعدت من العمل والحمد لله ...

جاءني في أحد الأيام المستاجر وضربني بالحذاء على راسي مع العلم انني لم أعرف سببا لتصرفه هذا . انظر لم يزل أثر الحذاء واضحا على جبهتي ... ماذا سافعل الآن وقد تقدمت بالعمر الى هذا الحد .. ماذا لو وقعت هذه الحادثة في أيام الشباب لعلمته كيف يضرب الناس . تسالني عن عمري .. يا سيدي أنا في الثالثة والسبعين من عمري الآن وأنا قادم الى حضرتك أعترضني أحد من قليلي الأدب ... لماذا ؟! ومن أين لي أن أعرف ..؟ إنها قلة أدب ... كنا نركب الباص سوية فقلت له « ابعد من خلف زوجتي » فلكمني على وجهي ؛ انظر ما زال الى الآن أثر اللكمة واضحا على وجهي .

ماذا فعلت ؟! ... وماذا بإمكاني أن افعل يا سيدي ؟ أمامي مستقبل اخاف عليه .. آه لولا مستقبلي لما تركته قبل ان اشبعه ضربا . اقسم بالله كنت سادوسه بقدمي وادفنه هناك . لولا الخوف على مستقبلي يا سيدي لكنت قتلته هناك .

هذا كل ما لدي يا سيدي .

الدنيا كبيرة لمن لا يجد لنفسه مكاناً عليها

صغرت الدنيا بالنسبة لبعض الناس لدرجة أنهم يستطيعون التقاطها بإصبعين ووضعها في فمهم وابتلاعها . أما بالنسبة للآخرين الذين يتجولون في الشوارع دون هدف ودون أن يعرفوا الى أين هم ذاهبون فهم يرون بأن الدنيا كبيرة لدرجة أن المحيطات لا تتسع لها .

أحسست بكبر هذه الدنيا عندما كنت أعاني الجوع لليوم الثاني ، ولذلك فرحت كثيراً عندما رأيت كمال وقلت له :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ لا أدري .

من خلال جوابه أدركت بأن الدنيا كبرت بالنسبة له . فقلت :

ـ الدنيا كبيرة لمن لا يجد له مكاناً عليها .

لم أدرك تماماً إذا كان قد فهم قصدي أم لا ، لكنه قال :

ـ الناس لا يفكرون بشكل جدي الا اذا ذاقوا طعم الجوع . وتابع يقول :

ـ اذا أردت أن تملأ معدتك بالكاتو والبسكويت تعال معي .

ـ على اعتبار أني أحترم كل فكرة وبما أن ما طلبته يعبر عن فكرة ما ، اذا أنا مجبر على احترامها .

دخلنا الى أحد محلات الحلويات الموجودة في غلاتا سراي ، وصعدنا الى الطابق الرابع ، دخلنا من باب عريض مفتوح على مصراعيه ، عندما

نظرت في وجوه الموجودين أدركت أن متوسط أعمارهم فوق الثمانين عاماً . أي أننا ستجلس مع مواطني الطبقة العليا في المجتمع . نظروا إلينا باستهجان وكأنهم عرفوا عمرنا وقيمتنا . يوجد بينهم ــ امرأتان إن صح التعبير ــ كن يجلسن على كراس مزركشة ومزينة بالمجوهرات ووجوه من القماش الملمع اما بالنسبة للنوافذ ، فقد كانت واسعة ذات ستائر مصنوعة من المخمل وممتدة من السقف الى الأرض . كانت الثريا تنشر اضواءها من خلال عدد من المصابيح الكهربائية . جلسنا بجانب بعضنا على طاولة فارغة . وضع كمال رجلاً على رجل وأسند ظهره الى الخلف . كنت أفكر بأمرين ، الأول هــو سبب وجودنا بين هؤلاء الناس والآخر كيف سنملأ بطوننا بالكاتو . مــد كمال يده الى علبــة فضية موضوعة على الطاولة وأخرج منها سيكاراً وأشعله ، فأخذت أنا أيضاً سيكاراً وأشعلته . ولأنني لم أدخن اية سيكارة من الصباح فقد أحسست بدوار حالما سحبت أول نفس من السيكار .

بعد وصولنا حضر عدة أشخاص آخرين ، همست بإذن كمال قائلاً :

ــ من هؤلاء .؟ فأجاب هامساً :

ــ هؤلاء هم مثقفو بلدنا ومشهوروه ، إنهم من الناس التي لا تدجّن .

ــ وماذا سيحدث هنا ؟!

ــ ستعرف الآن .

كان ضحك هؤلاء الأشخاص أشبه ما يكون بقرقعة جنزير السفينة . إنهم معرض للطبقة المخملية في المجتمع ، الذين كثيراً ما نراهم في الجرائد والمجلات . كان يوجد بين الحضور رجل بدين ذو ذقن طويلة تدلت حافتها الى صدره . صعد فوق إحدى الطاولات بعد أن نظر الى ساعته وبدأ كلامه :

يا أبناء هذه الدولة المحترمين ، نجتمع اليوم ، كما تعرفون ، بناء على الاعلان الذي نشر في الصحف بغية تأسيس « جمعية تطوير تركيا بإستخدام السياحة » وكما هو معلوم بناءً على قانون تأسيس الجمعيات يجب أن نشكل هيئة مؤسسين للجمعية . وكما أرى يوجد فائدة عظيمة إذا كان عدد المؤسسين كبيراً ، ولهذا إذا سمحتم لي سأعتبر كل الحاضرين من هيئة التأسيس ، وتعالت الأصوات « موافق » « موافق » « موافق جداً » تابع الرجل البدين قائلاً :

ــ إذاً دعونا نسجل أسماء الحاضرين .

بدأ التسجيل من الجالسين قرب الباب ، ومع أنه يعرفهم واحداً واحداً فقد كان يردد أسماءهم بصوت عالٍ ويكتب :

ــ البروفيسور جودي رندلي أوغلو ، الأستاذ البروفيسور إلهام ناريت ، الدكتور ذهني كل أباجي منهم البرفيسور ومنهم العضو في البرلمان ومنهم رئيس التحرير وهكذا ....

وعندما أتى دورنا سألنا الرجل البدين :

ــ وأنتم .؟..

نفخ صاحبي دخان سيجاره وقال :

ــ كمال بالز .

ــ وأنتم .؟ قدمت اسمي قائلاً :

ــ حسن جيمبريك .

وبهذا أصبحنا من مؤسسي « جمعية تطوير تركيا باستخدام السياحة » .

قال الرجل البدين :

ــ لقد تم تشكيل هيئة المؤسسين . غداً سننشر البيان العام للجمعية في الصحف بعد إتمام تحضيره . والآن يجب اختيار رئيس للجمعية من بين المؤسسين .

وبعد فترة من الصمت تخللها نوع من الهمس، كانت حركة مؤخراتهم على المقاعد ، تدل على أن كل واحد منهم متشوق لأن يصبح رئيساً للجمعية . قلت لكمال بصوت منخفض بعد أن أنهكني الجوع :

ــ متى سنأكل كاتو ؟

همس قائلاً :

ــ بعد التسلية .

قال الرجل البدين :

ــ إذا سمحتم لي فانا أرشح الأستاذ البروفيسور علي سعاد لرئاسة الجمعيــة .

نظر الجميع الى الرجل البدين بغضب ، لأنهم شعروا أنه يأخذ حقهم في وضح النهار .

ولكن ما باليد حيلة ولذلك بدؤوا بالتصفيق لأنه عليهم مساندة الرئيس الجديد . وبعد أن مضى تأثير الدهشة الأولى وأثناء قيام البروفيسور علي سعاد ــ الذي وصل طرفا فمه حتى اذنيه ــ عن كرسيه ليشكر الآخرين على تشجيعهم ... قال كمال :

ــ دقيقة يا سيدي .

وما دخلك أنت يا كمال ؟.. كل الرؤوس التفتت الى كمال الذي قـال :

ـ يا سيدي ، إن استلام الاستاذ البروفيسور علي سعاد لرئاسة الجمعية ، ليس فخراً لهذه الجمعية وحسب بل هو فخر لكل عضو من أعضائهـا .

نظرت الى المدعو علي سعاد ، كانت شفتاه ترفضان الانطباق فوق بعضهما من شدة فرحه ، وكاد لعابه أن يسيل من فمه .... وتابع كمال قـائلاً :

ـ ولكن الاستاذ البروفيسور علي سعاد هو الأستاذ الوحيد لمادة الحقوق الأساسية ، مئات الطلاب يستنيرون من علمه ، ولهذا لا أعرف ما مدى صحة طلبنا من البروفيسور أن يصبح رئيساً لهذه الجمعية وترك أبحاثه العلمية مهما كانت فائدة رئاسته لهذه الجمعية كبيرة .

تضايق البروفيسور من هذه الكلمات ، وهمّ أن يتكلم مما أدى الى خروج صوت قرقعة من أسنانه الاصطناعية ، ولكن كمال لم يعطه فرصة للحديث وتابع قائلاً :

إن البروفيسور علي سعاد يعمـل رئيساً « لجمعية الاكتشافات العلمية » ورئيساً لكل من الجمعيات التالية «جمعية الحقوقيين العالميين» ومندوب تركيا في « جمعية أبحاث المنظمات الحقوق العالمية » ورئيساً لجمعية « تجميل البرك والنوافير » الموجودة في منطقته السكنية ،ويجب الا ننسى انه يعمل رئيساً لجمعية « انقاذ الأطفال اليتامى » .

اصفرّ وجه علي سعاد بيك وأصبحت أسنانه المستعارة تقرقع داخل فمه لدرجة أني خفت أن يصاب بفالج ، وتابع كمال حديثه بذكر عدة جمعيات اخرى يرأسها علي سعاد :

ـ كما هو واضح جداً فإن السيد علي سعاد المحترم يقوم بفعاليات اجتماعية كثيرة وبخدمات لا تنسى لبلدنا مما جعل منه رجلا معروفاً على مستوى العالم ، ولهذا لا أعتقد بأن السيد علي سعاد المحترم لديه وقتا يسمح له كي يترأس جمعيتنا .

أما إذا أراد أن يقدم خدمة لجمعيتنا ويستلم إدارتها فسنكون سعداء بذلك . . .

صفق الجميع بسعادة وهم يحيون كمال حتى تكاد تظن أن في القاعة أكثر من خمسمئة شخص ، كأن كمال قد أزاح من طريقهم شخصا كاد يستلم الإدارة التي هي حلم الجميع دون استثناء .

وقف علي سعاد على قدميه بصعوبة وكأنه تقدم به العمر أكثر من عشرين عاما . شكر الجميع وقال :

ـ حقيقة ، أرجو أن تعذروني وتعفوني من رئاسة الجمعية لأنه لا يوجد لدي وقت للتفرغ لمهمة كهذه . وجلس على كرسيه كمن لا يريد أن يقوم ثانية .

قال الرجل البدين :

ـ في هذه الحالة اسمحوا لي أن أرشح جمال خضرلي بيك لرئاسة الجمعية .

ولأن الملل قد غزا روح علي سعاد فقد همس :

ـ افعلوا ما بدا لكم .

كان واضحا من وجوه الحاضرين العابسة أنهم غير راضين ، لأن كل واحد يحب أن يصبح رئيساً للجمعية .

شكر جمال خضرلي بيك الحضور بإيماءة من راسه ، غير ان كمال انتصب واقفاً وصرخ :

ـ إذا سمحتم لي لدي فكرة .

ومن جديد التفتت الرؤوس إليه فتابع قائلاً :

ـ إنه لشرف عظيم لنا أن السيد جمال خضرلي بيك سيتفضل باستلام رئاسة جمعيتنا .

وصل طرفا فم الرجل الذي يدعى جمال خضرلي الى اذنيه لدى سماعه هذه الكلمات وقال وهو يظهر علامات الخجل

ـ استغفر الله ... استغفر الله ، يا سيدي أنا أريد أن أقدم خدمة ....

قاطعه كمال قائلاً :

ـ لا احب أن أمدح الرجل بحضوره ولكني للحقيقة وللتاريخ أحب ان أقول بأن السيد جمال عضو فعال في البرلمان ولهذا فانا متأكد من الفوائد الكثيرة التي ستجنيها جمعيتنا إذا قبل استلام ادارتها . ولكن يجب ألا ننسى أن السيد جمال بيك من النواب الفعالين في مجلس الأمة.

قال جمال خضرلي بيك :

ـ لدينا أيام عطلة في المجلس ، ايام العطل كثيرة .

لكن صوت كمال طغى على صوت الرجل قائلاً :

ـ وكما هو معلوم فإن السيد جمال يذهب الى الناخبين في أيام العطل ليقيم التواصل معهم ومن جهة اخرى فهو يراس نادي «حاجي

تبه » ومن جهة ثالثة يعمل رئيسا لجمعية « هواة جمع الطوابع » فكما ترون أن السيد جمال خضرلي رجل مثقل بالأعمال والمسؤوليات وبعد ذلك فهو رئيس جمعية « اصلاح نسل الخيول » ورئيس جمعية « شاي الشعير » .

وصل صوت أسنان الرجل الى آذاننا ومن خلال الشرر التي كانت تتطاير من عيني الرجل . أدركت أنه سيأكل كمال لقمة لقمة إن وقع بين يديه .

وبعد أن أضاف كمال عدة جمعيات أخرى يرأسها جمال خضرلي بك أضاف قائلاً :

ـ كما ترون أيها السادة ، من كثرة أعمال خضرلي بيك لا يجد وقتاً ليحك رأسه وفوق ذلك تريدون أن تحملوه فوق طاقته بترشيحكم إياه لرئاسة جمعيتنا ، أهذا هو العدل بنظركم ؟ ! .. العدل يا سادة .. العدل ... ارجوكم أن تعدلوا .

كان السيد جمال خضرلي سيقبل بالترشيح رغم كل ما قاله كمال عنه لولا تدخل الطامعين بالرئاسة :

ـ هذا صحيح يا سيدي .

ـ فعلاً لا يجوز .

ـ الرجل محق في كل كلمة قالها .

وعندما اشتد التصفيق لكمال شكر جمال خضرلي بيك الأصدقاء قائلاً :

ـ حقيقة ، كما تفضل السيد فأنا مشغول جداً لذلك أرجوكم أن تعفوني من هذه المهمة . قال هذه الكلمات وسقط على كرسيه قطعة واحدة .

قال الرجل البدين :

وفي هذه الحالة أرشح السيد جاهد أمجان بيك .

أثناء تصفيق الذين فاتتهم فرصة استلام الرئاسة شكر جاهد أمجان بيك الأصدقاء وهمّ ان يتكلم غير أن كمال قفز من مكانه وقال :

ـ أريد أن أتحدث .

لما ادرك الموجودون ان كمال سيفسد على جاهد أمجان استلامه للرئاسة قالوا له :

ـ تفضل ...

ـ تفضل يا سيدي ...

قال كمال :

ـ إن السيد جاهد امجان بيك يتحلى بكل المواصفات اللازمه لمن يريد رئاسة جمعيتنا ، فكم ستكون سعادتنا عظيمة إذا تفضل وقبل استلام رئاسة الجمعية .

توجه جاهد امجان بالشكر الى كمال قائلاً :

ـ شكراً لهذا الإطرء ، شكراً لمجاملتك يا سيدي .

تابع كمال قائلاً ـ ولكن السيد جاهد أمجان يرأس تحرير إحدى اكبر الصحف في البلد ...

صرخ جاهد امجان :

ـ ليكن ... ليكن ... انا راضٍ بذلك واقبل به .

استأذن كمال قائلاً « عن إذنك يا سيدي » وتابع :

ــ فكروا معي بخطورة المهمات الواقعة على عاتق الصحافة التي تمثل السلطة الرابعة . أمن السهولة بمكان كتابة مقالة صحفية في هذه الأيام العصيبة التي يمر بها بلدنا ، حيث الأخطار تهاجمنا من الخارج ومن الداخل ومن واجبنا الاتحاد والعمل بجد ونشاط .

فقال جاهد أمجان :

ــ ولكني ألفت هذا العمل حتى أصبح نوعاً من العادة . . .

لكن كمال لم يسكت :

ــ ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار أن السيد جاهد أمجان عضو من أعضاء مجلس الإدارة في عدة شركات منها « شركة الطيران التركية » و « إدارة المياه » . . . صارت رجلا جاهد امجان تهتز اكثر من خمسين هزة في الثانية من شدة غضبه . وكانت أصابعه تنقر الكرسي كالنواس وبعد أن عدد كمال المناصب التي يشغلها جاهد من جمعية الصحفيين العالمية الى اتحاد أصحاب الصحف تابع قائلاً :

ــ فوق كل هذه المسؤوليات أترون مــن العدل ترشيح السيد جاهد امجان لرئاســة جمعيتنا ، أمن حقنا ذلك أيهــا الأصدقاء ؟! لا اعتقد أن السيد جاهد يستطيع قبول ترشيحه فوق كــل هــذه المسؤوليات التي أدرجناها سابقاً ، ومع ذلك فهو أدرى . ومن جهتي أرجوه أن يقبل باستلام الرئاسة .

وعندما لم يبق أي مجال للقبول لدى جاهد أمجان قال :

ــ كلا . . . لن أستطيع قبول ترشيحكم مع كل أسف .

قال الرجل البدين :

ـ في هذه الحالة سأرشح شكري إرغن إن كنتم تروه مناسباً .

همس كمال بإذني قائلاً :

ـ لقد اتى دورك ، قم وتكلم ...

فقلت له :

ـ ولكني لا اعرف هذا الرجل .

ـ قل ما تشاء .

وعندما هم شكري إرغن القبول الترشيح شاكراً الأصدقاء ، وخزني كمال بإبرة في جنبي فصرخت « هه » .. قفز كمال قائلاً :

ـ هذا السيد يريد أن يتكلم ..

وفجأة وجدت نفسي واقفاً ، حينئذٍ تذكرت حادثة قرأتها في إحدى الصحف في عمود الثرثرة الصحفية عن قصة زواج شكري إرغن من فتاة أصغر من ابنته .. فقلت :

ـ أيها السادة المحترمون ، أعتقد أن السيد شكري إرغن من أكبر الموجودين سناً ، ولهذا السبب فهو أكثرنا تجربة ، وهذا مايخوله لاستلام رئاسة جمعيتنا ، ولكني احب ان استغل فرصة وجوده معنا لأقدم أجملَ التهاني لحضرته بمناسبة زواجه من فتاة شابة ومازالا إلى الآن يقضيان أجمل أيامهم في شهر العسل ، ولكن أيها السادة فكروا معي بضيق وقتهما أعتقد أنهما لايجدان وقتاً لحك راسيهما .

قال شكري إرغن بيك بصوت مرتجف وكأنه يبكي :

ـ لا اريد ... لا اريد هذه الرئاسة .

وهكذا كلما كانوا يرشحون شخصاً كان كمال يطلب الإذن بالكلام بهدف تحطيم سعادتهم وكان كمال لا يجد أحق بالرئاسة من المرائين العجوزتين ، وأما الأشخاص الذين لم تذكر أسماؤهم بعد فقد كانوا يساندون كمالاً على أمل أن يأتي دورهم بالترشيح وبدأوا بمراقبة مجريات الترشيح .

وفي النهاية لم يبق سوى أربعة أشخاص لم يرشحوا للرئاسة :رجل مسن والرجل البدين وكمال وأنا . كان الرجل المسن بروفيسوراً في الجامعة في كلية الطب .

عدد كمال المناصب التي يشغلها البروفيسور من كرسي الأستاذية في الجامعة الى حاجة المرضى له إلى محادثاته حول الأمراض في الإذاعة إلى هواية الصيد الخ الخ ...

وتابع كمال قائلاً :

ـ أما إذا أراد البروفيسور أن يقدم خدمة للجمعية ويقبل الترشيح فهذا عمل لن ننساه خاصة وأن البروفيسور إنسان يحب المساعدة ولا نعرف كيف سنجزيه خيراً على عمله هذا . وأخيراً رشح الرجل البدين نفسه للرئاسة . وكان كلما قال كمال شيئاً يقول :

ـ لكن ساقبل الترشيح .. وأصبح رئيساً .

قال كمال :

بعد كل هذه الأعمال التي يقوم بها السيد ، لا أعتقد بأنه سيقبل الترشيح أما إذا تفضل وقبل أن يكون رئيساً للجمعية فسيكون هذا القبول بمثابة تضحية لن ننساها له والرجل البدين يصرخ :

ـ نعم إنها تضحية .. تضحية ، هل لديك اعتراض على ذلك ؟!

خرج الرجل البدين عن طوره ونسي حدود التربية وكمال يرد عليه بكل ادب وبكل برودة اعصاب حيث قال :

ـ لا ياسيدي ، حتى إن قبلت أن تكون رئيساً ، فلن نسمح لك لاننا نعرف انك بذلك تضحي بسعادتك وهذا شيء لن نرضاه .

ـ نعم سأضحي .

ـ ليس من حقك ياسيدي ، لن نقبل بذلك .

ـ صرخ الرجل البدين : ـ ومادخلك انت ؟!

اجاب كمال بكل برودة اعصاب :

ـ كيف لا اتدخل وانت عضو فعال ومهم وضروري الهذا الوطن ، حتى لو اردت أن تضحي بتفسك فالوطن لايستغني عنك . نعرف انك تحب التضحية ولكننا لن نقبل .

ـ الله الله ... ومادخلك انت ياأخي ، لاتتدخل بما لايعنيك .

ـ لا !!! ... إنه يعنيني ... إن هذا الوطن بحاجة ماسة للاشخاص المهمين لان وطننا لاينجب الأشخاص المهمين امثالك بسهولة، انت رافت بنا وقبلت رئاسة الجمعية ولكن مهما حاولت فلن نقبل بذلك لأن وطننا ينتظر منك خدمات أكبر واعظم .

صار الرجل يصرخ وكأنه اصيب بمس :

ـ وما دخلك انت ولا !!! .... ؟! .

حاول كمال تهدئة روع الرجل قائلاً :

ـ لا يمكن يا سيدي لا يمكن ...

قال رجل مسن لكمال :

ـ لقد فشلنا بترشيح كل الموجودين ولم يبق سوا كما دون ترشيح

بدا الموجودون يتهامسون :

ـ الآن فهمنا ماتريدان .

قال مباشرة :

ـ لن اقبل مطلقا ياسادة ، ارجوكم الا تلحوا علينا بطلبكم ان رئاسة جمعية تضم اناسا مهمين امثالكم ، تحتاج لمستوى اعلى من مستواي الفكري وتحتاج لكفاءة غير موجودة عندي . وعندما اتى دوري بالكلام قلت :

ـ لايمكن . . . انا اعرف حدودي جيدا ، فلا عمري ولا ثقافتي تسمح بذلك .

وبدات نقاشات فارغة لساعات طويلة وطرحت اثناءها تساؤلات كثيرة :

ـ إذاً . . . ماذا علينا ان نفعل ؟! ماذا سيحدث ؟

قال احدهم :

ـ لقد تأخر الوقت ، سنفكر برئيس الجمعية في الاجتماع القادم ، هيا لنذهب الآن الى البوفيه .

قال الرجل البدين لكمال ونحن نمر بجانب البوفيه الغني بالمأكولات :

ـ هيه ـه ەە . . انت . . من تكون ؟

قال كمال :

ـ ليس مهماً من اكون .

ـ وكيف لا يهم ، قل لي من انت .

ـ لست مهماً ، انا مواطن عادي .

ـ أيّ مواطن ؟

لقد ادركوا الموقف وبدؤوا بوابل من الأسئلة :

ـ من تكونـــان ؟

ـ ماذا تفعلان هنا ؟

ـ من دعاكما الى هنا ؟

قال كمال :

ـ ارجو ان تسمحوا لي كي اشرح الموقف، لقد كنت وصديقي هذا نبحث عن عمل ، لم نترك مكاناً إلاّ وبحثنا فيه عن عمل ، ولما وجدنـا الباب مفتوحاً دخلنا بقصد السؤال عن عمل . وبعد ذلك سجلتم اسماءنا وأصبحنا اعضاء مؤسسين لهذه الجمعية ... هذه هي حكايتنا .

بعد أن أنهى كمال حديثه ، هجم الجميع علينا ، كلّ واحد يريـد الثـأر منـا .

ـ المخربون ... الوقحون .

ـ الخونــة .

ـ لقد ادركت منذ البداية انهما مخربان .

ـ اخرجوا من هنا .

ـ نادوا الشرطة .

ـ لا تفسحوا لهما مجالاً للهرب . امسكوهما ، اخبروا الشرطة .

ـ اتصلوا بالهاتف .

ركضنا نحو الدرج وتخلصنا منهم ، التفت كمال الى الوراء وصرخ قائلاً :

ـ هيـه ... هيا الى الزعماء ... يو ٥٥٥ .. .

ركضنا صوب الشارع واختلطنا بالزحام ، كان الليل قد خيم على المدينة وانارت المصابيح الكهربائية الشوارع والمحلات ، ضحكنا وضحكنا حتى امتلأت عيوننا بالدموع .

قلت لكمال : ـ هل اعجبك العمل الذي قمت به ؟ ما الذي كنت ستخسره لو تركتهم يختارون رئيساً من بينهم ، لنملأ معدتنا بعد ذلك بالكاتو والبسكويت .

فقال كمال : ـ دعك من هذا ، اقسم ان تسلية كهذه تستاهل ان تبقى جائعاً ليلة اخرى .

فقلت : ـ تستاهل ... تستاهل .

الدنيا تكبر ، وتكبر ، وتكبر ، ... ما عادت ارجلي تقوى على السير من شدة الجوع ... هذه الدنيا كبيرة جداً لمن لا يجد لنفسه مكاناً عليها .

الكلب ، كاشـــف اسرار البشـــر

عندما كنت أقيم في المستشفى لم يكن يزداد وزني ولكنه على الأقل لم يكن ينقص ، غير أنهم لا يسمحون لي بالاقامة في المستشفى أكثر من ستة أشهر ، وبعد خروجي من المستشفى كـان ينقص وزني كيلوغراماً واحداً أو اثنين ، وهذا طبعاً من تأثير الجوع .

في الحقيقة ، أنا لم أكن أهتم لزيادة وزني بل كان ما يهمني هو الا ينقص أكثر مما هو عليه ، فقد كان وزني عندما خرجت من المستشفى ، مع الألبسة ، حوالي ثلاثة واربعون كيلوغراماً . ولهذا السبب دُهش الرجل الذي قابلته في الآونة الأخيرة وأنا أبحث عن عمل . فقال لي :

ـ أتريد عملاً ؟! وأي عمل تستطيع القيام به ؟

ـ لا فرق يا سيدي . اي عمل تراه مناسباً .

ـ بحالتك هذه ؟ ... كيف ؟

ـ وهل كنت تعتقد بأني كنت سأقبل بأي عمل لولا حالتي هذه ؟ ياسيدي ليس بوسع أمثالي إلا ان يقولوا :«نعمل أي عمل تراه مناسباً».

لا شك أن الرجل أعجب بكلامي كثيراً ، لأنه قال :

ـ اجلس لنرى .

جلست على المقعد الذي دلّني عليه بإيماءة من راسه ، وقال :

ـ افتح اذنيك جيداً ، واسمع كل كلمة سأقولها لك .

سألخص لكم ما قاله الرجل فيما يلي :

سأذهب الى بيت أحد الأغنياء ،لقد عرفته مباشرة واسمه ف.ب. وسأجده في البيت حتماً لأنه لا يخرج يوم الأحد بعد الظهر من البيت . ولأن السيد ف.ب ليس لديه أولاد فهو يحب كلبه كثيراً .

إنه يعتني بهذا الكلب كثيراً كما لو كان ولده ، إنه يحبه محبة الأب لإبنه ، في الحقيقة ، إن زوجته هي التي تحب الكلب ولأنه يحب زوجته كثيراً فهو يحب الكلب الذي تحبه .

يقال بأن هذا الكلب مثل الانسان ، وبعبارة أدق، هو مثل الانسان الذكي ، لأنه أذكى من الانسان العادي . إذ أنه يتمتع بقدرة خارقة على كشف الانسان الجيد والانسان السيىء ، إن السيد ف.ب يستعمله لاختبار البشر ، فإذا ما اقترب الكلب من الشخص وبدأ بلمسه ومداعبته فهذا يعني أن هذا الشخص إنسان جيد ، أما إذا نبح عليه وعضه فهذا يعني أن هذا الشخص إنسان سيىء . إنه شيء لا يصدق ، ولكن هذه هي الحقيقة لأن السيد ف.ب لم يُخدع بأي إنسان اختبر بهذه الطريقة .

يقول الرجل :

ـ افعل ما بوسعك كي يحبك هذا الكلب . لأن الزوجة تحب كل من يحبه هذا الكلب والسيد ف.ب يحب كل من تحبه زوجته. أفهمت؟! إن السيد ف.ب. سيساعدك ويقدم لك عملاً إذا لم ينبح عليك الكلب .

ولأنه ما باليد حيلة فقد اضطررت لأن أجرب ما قاله هذا الرجل. بقي حتى يوم الأحد يومين فقط ، مضى يوم السبت دون أن أتناول طعام الغداء أو طعام العشاء . ولم أضع لقمة واحدة في فمي في صباح يوم الأحد . لم يبق معي من العشر ليرات التي كانت بجيبي سوى ثلاثة

ليرات اشتريت بهما بسكويت . قطع سكر ، شـوكولاته ، وقليلاً مـن السجق . وذلك كرشوة اقدمها للكلب كي أنال رضاه .

لقد كنت جائعاً لدرجة أنني حاولت أكل قطعة بسكويت غير انني صبرت ولم آكل شيء .

ذهبت الى بيت السيد ف.ب الذي حصلت على عنوانه من الرجل الذي حدثني عنه . وعلمت أنه يسـكن في الطابق الأول في واحدة مـن البنايات الواقعة في كوموش‌سو . يعتبر بيتـه في الطابق الأول بالنسبة للمدخل ولكنه من الجهة الأخرى أعلى بكثير .

فعلت كما قال الرجل ، ولكن المرأة التي فتحت الباب لم تسمح لي بالدخول فكذبت عليها ، كما علمني الرجل ، وقلت :

ـ لقد دعاني السيد الى هنا ، لقد أخذت منه موعداً .

عندئذٍ سمحت لي بالدخول قائلة :

ـ تفضل ، انتظره هنا .

كان الصالون كبيراً جداً ومفروشاً بأثاثٍ فخمٍ كما القصور ، كان يبدو منظر البحر ، من النافذة الواسـعة ، واضـحاً وجميلاً . عندما اقتربت من النافذة ونظرت الى الأسفل ، أدركت أنني في الطابق الخامس على الأقـل .

كل ما كان يشغل تفكيري هو الكلب ، ولهذا كنت في حالـةٍ مـن الخوف والقلق لما ينتظرني من مفاجآت . شعرت وقتئذٍ أنني في إحدى مغارات الموت التي كانت تكثر في العصور القديمة ، وبعد قليل لا شك بأن الأبواب ستنفتح لتهاجمني الأسود الجائعة .

كنت انتظر بجانب النافذة ويدي في جيبي تمسك قطع البسكويت. لا استطيع تقدير الزمن الذي مر وانا في هذه الحالة . فتح مصراع الباب الواسع الذي امامي ... بهدوء ... بهدوء . وظهر رأس مخلوق ما . نعم إنه رأس ولا ريب . ولكن رأس ماذا ..؟ هذا ما لم استطع معرفته .

إنه اشبه ما يكون برأس إنسان ضخم . ولكن مقاطع وجهه لا تشبه مقاطع وجه الانسان . لو كان يملك قرنين لقلت إنه رأس ثور . آه ... يا إلهي . لأي مخلوق هذا الرأس ؟ لا تظنوا بانه لم يخطر بذهني إنه رأس الكلب الذي انتظره . ولكن استبعدت ذلك . إذ لا يمكن أن يكون رأس كلب . لأنه اعلى من قبضة الباب باربعة اشبار على الأقل . على كل حال . استطعت ان اعرف شيئا واحداً وهو ان عينا هذا الرأس كانتا تحدقان بي . لقد تجمدت في مكاني وكأنني نومت تنويما مغناطيسيا . ولولا ذلك لهربت من هذا المكان . وقفنا نتبادل النظرات لفترة من الزمن لا استطيع تحديدها . بعد ذلك استدركت .. لم لا يكون هذا الذي امامي هو السيد ف.ب وقد أتى قبل الكلب . لا،لا.. لا يمكن فهذا الوجه مكسو بالشعر ولكن ربما تأخر المسكين بالاستيقاظ ولذلك لم يحلق لحيته . نعم إنه هو . هل اقدم له التحية ؟ وماذا سيحدث إن لم يكن هو ؟ لا شيء .. وماذا سيحدث لا؛ يا رجل ... السلام لله . إن قبله كان خيراً وإن لم يقبله « يسطفل » المهم هو أن اظهر بانني تلقيت تربية ممتازة .

حالما ابتسمت وهززت رأسي .. اكتشفت انني اسأت التصرف . ولكن ما العمل ؟ اردت تقديم التحية . فسمعت صوت « هرررر .. » ودخل بعدئذ احدى مخلوقات ما قبل التاريخ .

الله . الله .. أي مخلوق هذا ؟ ... اهذا ما يسمونه كلبا ؟ لا شك أن تشوها ما قد حدث في نسل الكلاب حتى انتجت كلبا كهذا . إنه عبارة عن هجين بين الجواميس والجمال .

لو كانت قصتي انتهت بدخول هذا الكلب الى الصالون لاعتبرتها نهاية سعيدة . بعد أن دخل الى الصالون أغلق الباب بمؤخرته كما يفعل البشر ، ووقفنا وجهاً لوجه ، استطال وجهه ... استطالت شفتاه ، وظهرت أسنانه وكأن الكلب ابن الكلب قليل الأدب هذا يريد أن يعضني.

لقد فهمت انني لم أنل إعجابه وذلك من خلال نباحه ، وبلغة اخرى ، لن أجد عملاً هنا ، ولكن كيف سأتمكن من الخروج من هنا لأنقذ نفسي من التهلكة !؟

تَقدَم خطوة اخرى :

ـ هررر ...

الحمد لله أنه توقف ، ما زال يحتفظ بقليل من الشرف . نظرت الى اليمين فوجدت باباً آخر ... يا إلهي .. إنه يراقب حركة عيني ولا يريدني أن أنظر الى أي مكان آخر . خطر بذهني أن أركض بسرعة وأفتح الباب وأنادي « النجدة ةةة ... » ولكن ، ماذا لو كان أسرع مني. فيمسكني من مؤخرتي ، عندئذ لن يتركني سالماً .

منذ زمن وأنا أسمع أن الكلاب لا تهاجم الناس إذا كانوا عراة . اذن لم لا أخلع ثيابي ، أرميها فوق الكرسي ، وأهرب من الباب ؟.. لا لا .. لا يمكنني . لأنني ما أن أحرك أصابعي حتى ينبح ونباحه يكفي لرعب الانسان ، أين الناس الذين يعيشون في هذا البيت الواسع ؟ ليس أمامي سوى الصراخ .. وبدون أن أدري صرخت :

ـ هيه ـه ـه ـه ...

أجابني الكلب بأن اقترب خطوتين نحوي ونبح :

ـ هررر ...

عندئذ تذكرت الرشوة التي وضعتها في جيبي ، ولكنه سينبح اذا ما حركت أصابعي ... وبلمح البصر اخرجت الشوكولاته والسكر والسجق . راح يشم الاشياء التي رميتها على الارض . وبعد ذلك أبعد رأسه عنها وكأنه اشمئز منها .

لم يأكلها !! .. يا إلهي ماذا سافعل ؟ لا شك سنتفاهم فكما يقولون يتفاهم الكلاب بالشم والبشر بالكلام . لأقل كلمتين لتهدئة الجو مع هذا المارد . ربما ينفع الكلام الجيد مع هذا الكلب ، نعمّت صوتي وقلت :

ـ بوبي .. بوبي بيبي ... يا حبيبي .. يا روحي ... يا لك من كلب جميل ... تعال .. تعال ...

كشر عن انيابه ونبح ردا على كلامي . فضممت شفتي ربما يحبني اكثر :

ـ اه منك اه ...

ـ هررررر ...

ـ ما شاء الله ... انت جميل جداً ، ما اسمك يا حبيبي ؟!

ـ هرررر ...

ـ يا صاحب الصوت الجميل ... ولك ... ولا !!! ... يا حبيبي ... يا والدي ...

ـ هرررر ...

ـ يا روحي ... يا حبيبي .. يا وحيدي ...

ـ هرررر ...

ـ هيا . . . تعال الى هنا . . . هيا تقدم من اخيك الكبير . . . تعال يا روحي . . يا حلو . .

ـ هررررر . . .

قلب الحجر يلين وقلب هذا الكلب لا يلين ، لا يوجد في قلبه ذرة عدل او رحمة . فعلا لم يكذبوا حين قالوا عنه « كلب يشبه البشر » .

لقد سررت كثيراً لانه لم يهاجمني حتى الآن ، ولذلك فكرت أن آكل الأشياء التي أحضرتها وذلك لسببين ، الأول : لأنه لم يحبها والثاني : لأن الجوع بدأ يزداد شيئاً فشيئاً وعندما مددت يدي لآخذ قطعة بسكويت حدثت المصيبة الكبرى ، ودخلنا في معمعه كما يحدث في افلام الكرتون ، درنا عدة دورات وبعد ذلك اصطدمت بالجدار وقفزت من الباب الخارجي فاصطدمت بإمرأة تلبس روب نوم أحمر كانت تنزل الدرج . فتدحرجنا عدة درجات وتمددنا فوق بعضنا ، المرأة في الأسفل وأنا فوقها والكلب فوقي . ولكن ما أثار دهشتي فعلا هو الكلب الذي صار يلحس وجهي ويداعبني وهو يهز ذيله . قالت المرأة بعد ان سحبت نفسها من تحتي .

ـ مـن انـت ؟

لكنني صرخت من شدة دهشتي :

ـ ها قد نلت رضا الكلب . . . لقد صار يحبني .

ذهبت المرأة ، التي كانت تبدو جميلة وشابة ، بعيداً وهي تهز مؤخرتها ، وبقيت أنا والكلب ، نظرت الى الاسفل فأدركت أن سروالي قد تمزق ، والكلب ما برح يهز بزيله . . . يا إلهي ما الذي يحدث ، لا أكاد أصدق انني اداعب رأسه بيدي ، بعد ذلك شبكت سروالي بدبوس ياقة القميص لانه ليس من المنطقي الخروج بسروال ممزق الى الشارع . دخلت

الى الصالون وتبعني الكلب انه لا يتركني ، يدفعني بصدره كي يرميني ارضاً ويبدأ يلحس وجهي ، حتى طلا جسمي بلعابه . وكلما اردت النهوض يضع أطرافه الاماميتان على كتفي ويرميني ارضاً ، يريد ان يلعب ويلهو وكانه كلب آخر غير الذي كان ينبح منذ قليل ، يرميني وارميه ونقلب فوق السجاد ونتدحرج ... لقد اجتمعت عدة عوامل الجوع من جهه والمرض من جهة ثانية والخوف من جهة ثالثة فأحسست بالإنهاك والتعب . المهم اننا الفنا بعضنا لدرجة انني جمعت السكويت والشوكولاتة والسجق من الارض وبدأت بإلتهامها .

قدمت له بعضها ولكنه لم يأكل .

لقد ارتحت كثيراً . صرت الاعب الكلب بصوت عال وذلك كي يسمعني السيد ف . ب :

ــ يا حبيبي ... يا روحي .. يا حلو .. تعال .. هيا تعال .

لقد الفنا بعضنا .

وعندما دخل السيد ف . ب . كان الكلب يلحس وجهي بلسان بطول حذائي وكانت اول كلمة قالها السيد ف . ب :

ــ لقد احبك .

فقلت :

ــ ادامه الله .

ــ إنه كاشف أسرار البشر ، لا يألف لكل الناس ، ويعرف الشخص الجيد فوراً .

ــ شكراً لك .

ولكن الكلب لا يفسح لي مجالا كي اتحدث مع الرجل بحرية .

ـ إنه يسمع الكلمة وينفذ الاوامر مثل البشر تماماً .

فقلـت :

ـ آه يا سيدي ، ليت كل البشر يسمعون الكلمة مثله .

ثم خاطب كلبه قائلا :

ـ هيا الى الخارج يا رينتين .

فطوى الكلب ذيله وخرج . ابتسم السيد ف. ب. قائلا :

ـ سروالك ؟!

ـ لا يوجد اي ضرر يا سيدي ، لقد تمزق قليلا عندما كنا نلعب .

وبعد ذلك اعتذرت عن الازعاج الذي قد أكون قد سببته له في يوم العطلة وطلبت عملا ، ثم أعطيته أسم الشخص الذي أرسلني اليه .

فقـال :

ـ تعال الى المصرف غداً .

ثم شكرته على استقباله وخرجت من البيت .

ولكن اللغز الذي لم أستطع فهمه هو موقف الكلب في بداية الامر وموقفـه في النهاية . لماذا نبح في بداية لقاءنا وبعد ذلك أحبني وصار يداعبني ؟ لقد حل لي هذا اللغز أحد معارف العائلة فقال :

ـ فعلا إنه كلب ذكي . إن زوجة السيد ف. ب. دربت الكلب على عادة مفادها أن يعرف مباشرة الشخص الذي يداعبها ويمارس معها

ويمضي معها اوقاتا سعيدة . فيحبه ولا ينبح عليه . أما اذا دخل الى البيت شخص آخر غيره فانه يمزمه اربا اربا . هل داعبت السيدة وامضيت معها وقتا ممتعا ؟.

قلت :

ـ نعم لقد سقطنا فوق بعضنا اربعة او خمسة درجات وبعد ذلك وقفنا على ارجلنا .

ـ جيد . بعد ذلك أحبك الكلب . ولولا ذلك لمزقك إربا إربا . لانه مهما يكن فانه يبقى كلبا فمن أين له أن يعرف سبب وجودكما فوق بعضكما انت والمرأة ؟ .

لقد عشت كثيراً . ورأيت كثيراً . وتعلمت الكثير الكثير حتى وصلت الى هذا السن . لقد رايت الكثير من القوادين بين البشر ، ولكني اليوم ولأول مرة رايت قوادا بين الكلاب . يا لهذه القدرة الخارقة التي يملكها البشر ، الدرجة قد علموا الكلاب القوادة .

ماذا ! اتسالني عن العمل ؟! .

لا لم اعين في المصرف . لان روجة السيد ف. ب. قالت لهم :

ـ « لا توظفوه » .

* * *

جـاء ابـو الشـراشـر

ـ لقد مات نهاد السكران .

ـ الم تسمع ؟ لقد مات منذ زمن .

ـ مات المسكين عندما كنت في فرنسا ، وعندما رجعت سمعت بهذا النبأ السّيء ... آه ... آه .

ـ كان يشرب كثيراً .

ـ واضح من اسمه ، نهاد السكران ... هل بقي يشرب كما كان في الماضي ؟ ! .

ـ وهل تسمّي ما كان يرشفه في الماضي شرباً ؟ صار يبدأ بالشرب في الصباح ولا أحد يعرف بأي حفرة يمضي لياليه ، كان غالباً ما يصحو من سكرته في المخفر ، الحمد لله ان كلّ الشرطة كانت تعرفه . أحياناً كان يبقى غائباً عن الأنظار يومين أو ثلاثة ايام يعود بعدهابوجه مجروح مليء بالخطوط الحمراء .

ـ لكن شربه كان جميلاً .

ـ كان هذا في الماضي . ولكن في ايّامه الأخيرة لم يعد شربه جميلاً ، إذ أنّ شكله كان يتغيّر من الكأس الأوّل الذي يشربه ، يعبس وجهه ، تتدلى شفتاه ، تحمرّ عيناه ويثقل لسانه فيصبح حديثه عديم المعنى ويتفوّه بألفاظ حمقاء . لقد أصبح المرحوم مكروهاً جدًّا في ايامه الأخيرة وأصبح لا يحتمل . وأصبح ثرثاراً فإذا ما جلس في مكانٍ ما لا يبرحه ولا يمكنك التخلّص منه بأية طريقة إذا ما جلست معه .

ـ آخ ... آخ ... كم كان إنساناً جيداً وذا تربية ممتازة !! ...

ـ لقد جعلني سخرية لكل الناس في إحدى المرات . هل سمعت بتلك الحادثة ؟ .

لا اتوقع أنك سمعت بها . لانك كنت وقتئذ في فرنسا .

* * *

حتى الآن لم اعرف ما الذي احبته تلك الفتاة في شخصيتي . أما أنا فقد كنت احب كل شيء فيها . كانت آيسفين فتاة محبوبة جداً ولا ينقصها اي شيء .

لم اكن اؤمن بالحب من نظرة . ولهذا ظننت انها كانت تسخر مني، طبعاً كان يجب ان اظن ذلك وإلا فكيف سأفسر سبب اختيارها لي . وهي التي باستطاعتها اختيار اي شاب من الشباب الوسيمين . آيسفين فتاة شابة وغنية .

عندما نكون جالسين لايمكن ان تدرك الفرق بيننا ، وعندما نمشي يظهر عدم التناسب بيننا بشكل واضح ، كانت طول قامتي تصل إلى مستوى كتفيها فقط وسبب ذلك ليس طولها غير العادي بل قصر قامتي غير العادي . كنا نلفت انتباه المارين عندما كنا نمشي بمحاذاة بعضنا . دعتني آيسفين في الصيف إلى بيتهم حيث كانوا يقيمون في الجزر ، قالت:

ـ تستطيع هناك ان تتعرف على أمي وأبي .

ولكن كما تعلم انا خجول جداً ، فليس من اللائق أن اذهب إلى بيتها والتعرف على والدها ووالدتها دون مناسبة . ثم بأي صفة سأذهب ؟ والاسوأ من ذلك انني ووالد آيسفين بنفس العمر تقريباً فانا اكبر منها بخمسة وعشرين عاماً .

طبعاً انت تعلم أن هذا الوضع غير محبب . هيا لنفضّ الطرف عن الورم الذي تحت عيني بتأثير السن ، ثم أن أباها أيضاً يشبهني بهذه الناحية ولكن هندامي قديم جداً ، وكنت يومئذٍ عاطلاً عن العمل ولا أستطيع أن أشتري ثياباً جديدة ، قلت :

ــ سآتي إلى الجزر ولكن لن أذهب إلى بيتكم .

ألحت كثيراً ولكني قلت :

ــ لايمكن ان أذهب فالقرار ليس بيدي ، سأتعرف على والدك في مناسبة اخرى . ذهبت إلى بيوك اضا « الجزيرة الكبرى » قابلتني في الميناء وذهبنا إلى شارع العشاق الموجود في الطرف الخلفي للبيوك اضا. شبكت آيسفين أصابعها بأصابعي ، طبعاً كما تعلم هذه الوضعية تناسب تماماً مايسمى بالحب الأفلاطوني .

بعد فترة من الزمن شعرت بأن آيسفين قد تعبت كثيراً لأنها اضطرت للانحناء قليلاً كي تصل أصابع يدها إلى مستوى أصابع يدي نتيجة للفرق الكبير بين طول قامتينا . ولهذا فقد تراجعت عن الوضع السابق وحاولت وضع ذراعها فوق كتفي فحبست بذلك رأسي تحت ذراعها . وكنت بين الحين والآخر أخرج رأسي من تحت إبطها كي أجيب على بعض الأسئلة التي كانت توجهها إلي . عندما وضعت آيسفين ذراعها فوق كتفي توجب علي أن ألف خصرها بذراعي وذلك كي يكتمل منظر العشق الأفلاطوني ، ولكن على الرغم من رفع ذراعي إلى أقصى حد ممكن لم أتمكن من مسك خصرها ولهذا « لا تؤاخذني » بقيت يدي تحت مؤخرتها تماماً . انظر الى هذا الوضع غير اللائق ، ومع ذلك فأنا واثق من أن ذراعي كانت ستصل إلى مستوى خصرها لو لم تضع رأسي تحت إبطها .

ما كان يدهشني دائماً هو ما الذي تحبه آيسفين الجميلة في شخصيتي ؟! طبعاً طرحت هذا السؤال على أحد معارف العائلة أقصد عائلة آيسفين فأجابني قائلاً :

ــ جميع أفراد عائلتها بنفس العادة .

ــ وكيف ذاك ؟!.

ــ امها تحب القطط كثيرا ، ووالدها يحب الكلاب ويوجد في بيتهما كما يعتقد اكثر من اربعين او خمسين قطا وكلبا . وكل هذه الحيوانات تتصف بصفات مشتركة : قبح منظرها وغير محبوبة . لآنهم لايأخذون إلى بيتهم اية قطة جميلة او كلب مقبول ، وكلما وجدوا قطة قبيحة في الشارع يأخذونها إلى بيتهم . وعندما سألت امها عن السبب ، قالت : « القطط والكلاب » الجميلة موجودة في كل بيت ولكن الحيوانات التي نملكها لايوجد في اي بيت حيوانات شبيهة بها » .

اي ان هذه العائلة تحب الأشياء المختلفة ، وكل معارف العائلة يعرفون هذه الميزه التي تتمتع بها هذه العائلة . ولذلك فقد كان كل شخص يلتقط قطة او كلبا مجروحاً . أو وسخاً أو قبيحاً يذهب ويبيعه إلى هذه العائلة . . فليس عجبا أن تعجب بك آيسفين ومحبتها لك طبيعية جداً لأنها ورثت هذه الميزة عن أهلها .

أراحتني هذه الكلمات كثيراً ومع ذاك فقد كانت الحيره تتملكني بعض الشيء .

كنا نتمشى في طريق المشاق بخطوات بطيئة جداً فطلبت منها حال وصولنا الى الشاطىء المقابل قائلا : ــ هل تحبين أن نجلس قليلا ؟.

قالت : ــ طبعاً .

جلسنا بجانب بعضنا ، قلت :

ــ آيسفين . هناك أمر يحيرني جداً .

ــ وما هو ؟

ـ انت فتاة جميلة ، متطورة ، تذهبين الى الجامعه ومن عائـلة غنية جداً ، إنسانة بهذه الصفات الكاملة ما الذي يعجبك في شخصيتي حتى تعلنين حبك لي ؟.

قالت بلا اي تردد :

ـ احب كلّ شيء فيك . انت رجل زكي وحديثك رائع .... إنك شخصية رائعة .

نظرت الى وجههـا وحـدقت داخـل عينيها كي أعرف إن كانت تسخر منّي ،... كلا إنها لا تسـخر مني لأنها تتحدث بجدية تامة . ولا يوجد اية علامات للسـخرية في ملامح وجهها . ولو اكتشـفت وقتئذ أنها تسخر مني لخنقتها ورميتها في البحر ، كنت احدّق في عينيها ... قالت :

ـ لا تنظر إليّ هكذا ....

لم أستطع إبعاد نظراتي عنها ، فقالت بلهفة :

ـ لا تنظر إلي هكذا ، إنك تخيفني .

تطمأنت وشعرت بالراحة والأمن فوجهت نظراتي الى البحر .

هي التي طلبت الزواج مني ، ولو كان الأمر بيدي لما استطعت ان أقول لها « لنتزوّج » حتى لو عشت عشرة آلاف عام ، نظرت الى الأرض قائـلاً :

ـ لنتزوّج .

فقالت : إن اكثر ما أحبه فيك هو هذا الخجل وهذا الكبرياء .

بالرغم من انها فتاة متطورة جداً فقد كانت مرتبطة بالعادات والتقاليد الاجتماعية . ولهذا فقد كانت تعتبر أنه من الضروري أن يبارك أبوها وأمها هذا الزواج .

قلت : _ ايمكن ان أنال إعجابهما ؟

_ لقد حدثت أمي وأبي عنك وهم لا يرفضون طلباً لي . وقال أبي : « ادعه الى البيت لنتعارف » .

_ لا أستطيع أن أذهب الى بيتكم الآن ، سأتعرّف على والدك في مناسبة أخرى .

منذ ذاك اليوم وآيسبين تخلق الفرص ليتم التعارف بيني وبين عائلتها ولكني خوّاف بطبعي . فقد كان يتعيّن عليّ أن أجد عملاً ما ، وأن أجمع النقود . غير أن آيسفين كانت ترى أن العمل مؤمّن بعد الزواج إذ أن والدها يعمل في الاستيراد والتصدير وممثلاً لعدة شركات أجنبيّة وهو بحاجة لشخص مثلي كي يساعده في عمله .

قالت آيسفين في أحد الأيام :

_ لقد اتت الفرصة ، غداً ستتعرّف على والدي في السهرة التي نقيمها .

أعطتني بطاقتي دعوة . نظرت الى البطاقة بطرف عيني « يجب الحضور باللباس الرسمي » .

أي يتوجب علي أن أجد طقم سموكين ، ولكن ... لا يوجد لديّ أية ألبسة غير التي ألبسها . كانت هذه السهرة عبارة عن حفل تعارف بين الصحفيين الاجانب ووكالات الأنباء الموجودة في استانبول . سيأتي

الى الحفل موظفو السفارات الأجنبية لأن والدها مندوب لشركات اجنبية كثيرة وله علاقات مع الأجانب .

وعدتها بأن أحضر إذا سنحت الفرصة . ولكن كيف سأذهب ؟ وهل أملك ثياباً تليق بالاحتفالات ؟

في الليلة التي ستقام فيها السهرة كنت أتجول في الشوارع بملل لا يطاق . والبطاقة في جيبي ، ولأنني لا أملك سوى ثمن كأسين أو ثلاثة كؤوس من الخمر دخلت الى إحدى الخمارات في لامبو لأنها أرخص من غيرها . أتعرف بمن التقيت ؟! لقد التقيت بهاد السكران هناك ، وكعادته في كل مرة يلقاني فيها احتضنني وقبلني وطلا وجهي بلعابه اللزج . كنت وقتئذٍ بحاجة لأي شخص كي أشكي له همومي . وبدأنا نشرب ، كأس ، إثنان ، ثلاثة ... أربعة ... قال نهاد السكران : ـ نحن في اي يوم من ايام الأسبوع ؟

ـ الأربعـاء .

ـ تفو .... يامه ، ولك خرجت من البيت صباح الاثنين ، أي أنني خرجت منذ ثلاثة أيام . كنت أعتقد أني خرجت صباح اليوم من البيت ، لنر كيف سأقنع زوجتي بذلك .....

وفجأة وكأنه استفاق من سكرته قال :

ـ في أي يوم من ايام الشهر ؟

ـ اليوم الرابـع .

ـ إيه ... الحمد لله ، للحظة ظننت أني خرجت من البيت في يوم الاثنين من الأسبوع الماضي ولهذا خفت كثيراً .

ـ لا تخف . اليوم هو الرابع من شهر شباط .

ـ ماذا!!!!! ؟ أيوااااه . . .

ـ ماذا حدث ؟

ـ ولك . . . انا خرجت من البيت في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني لقد وقع الفاس بالرأس . لا شك ان زوجتي ستطلقني . لقد وعدتها بأن « أشرب في البيت » واقسمت يمينا على ذلك . قالت « وإلا سأطالقك » والله . . . . ستطلقني . . .

بدأ نهاد السكران بالبكاء فاختلط سائل انفه مع لعابه مع دموعه . وقال :

ـ لم لا تشرب ؟!

ـ لم يبق معي نقود . شربت بالنقود التي كانت معي .

ـ انا أملك نقوداً . اكتشفنا عندما كنا نحضر طعام الفطور أنه لا يوجد شاي في البيت فاعطتني زوجتي قطعة نقدية من فئة الخمسمائة ليره وقالت « اشتر شايا وعد بالباقي . ولكن لا تتأخر . وخرجت من البيت ولم أعد حتى هذا الوقت .

بدأت أبحث عن أحد يصرف لي الخمسمائة ليرة . بحثت وبحثت حتى وصلت الى الني أوغلو فقلت سأشرب قدحين من الخمر كي يصرفوا لي الخمسمائة ليرة .

وأما عن بقية القصة فأنت تعرفها . آه يا زوجتي العزيزة . . آه . . منذ شهر وأنت تنتظريني على مائدة الافطار كي أحضر لك شاياً .

صارت عيناه أشبه بصنبوري ماء من شدة البكاء .

ـ يا اسطة لامبو املأ قدحين آخرين .

تقترب حالة السكر من الانسان عندما يكون مهموماً ولهذا فقد ثملت من القدح الثامن أو التاسع ، لا أعرف أمن شدة الثمالة أم تضامناً مع نهاد السكران بدأت بالبكاء يبكي فأبكي على بكائه .

ـ اسطة لامبو ، املأ الاقداح من جديد .

ـ قال الأسطة لامبو :

ـ لا . . . كفى شرباً .

ـ أرجوك ، آخر قدح .

ـ ولا قطرة واحدة .

ـ خرجنا من الحانة نهتز تارة ، نسقط على الأرض فنقوم تارة أخرى ونبكي تارة ثالثة وهكذا حتى دخلنا الى خمارة أخرى .

قال نهاد السكران :

ـ أنا أبكي من أجل زوجتي ، ولكن لِمَ تبكي انت ؟

شرحت له الظرف الذي أمرّ به . فقال :

ـ هل أنت مجنون ؟ هيا اذهب الى الحفلة . أيمكن أن تضيّع من يدك فرصة كهذه ؟!

ـ انظر الى ما هو مكتوب في هذه البطاقة : اللباس الرسمي إجباري .

ـ هذه البطاقة لشخصين .

ـ لا يوجد بطاقة لشخص واحد .

ـ حسن . لنذهب سوية . السيد العربسي من اعز اصدقائي . ساعرفك عليه كي لا يقول والد الفتاة انك احمق وقليل الشأن .

ـ لا يمكن ان نذهب بهذه الألبسة .

ـ لدي في البيت طقمين سموكين . لنذهب ونلبسهما . ولكن يجب وقبل كل شيء ان نشتري علبة شاي .

ـ الساعة الثانية عشر الا ثلثاً اين سنجد شايا في وقت كهذا ؟!

ـ سنجد في المقاهي . إن اعطيتهم نقوداً ..... لحظة لقد خطرت ببالي فكرة : ستقول لزوجتي كان نهاد عندي في البيت ولم اتركه يغادر لأنني احب فتاة . ووفاء لصداقتنا يحاول التوفيق بيننا . هل فهمت؟ واليوم سنقابل والد الفتاة ... إن زوجتي إنسانة رقيقة جداً ستشفق بحالك .

مررنا من الخمارة فوجدنا مقهى على وشك الإغلاق ، اخذ منها علبة شاي واعطى صاحبها ثلاثة او اربعة اضعاف ثمنها . وذهبنا بعد ذلك الى بيت نهاد السكران .

ادخل بهدوء ... ربما تكون زوجتي نائمة ، سنلبس ثيابنا ونخرج دون ان نوقظها . اخرج المفتاح من جيبه ولكننا لم نجد ثقب الباب . اشعلت عود ثقاب كي نرى الثقب . خمسة عيدان . عشرة عيدان ولكن دون فائدة قال نهاد بعد أن احترقت اصابعي :

ـ ابحث عن الثقب وانا ساشعل عود الثقاب .

ـ اشعل العود فاشتعلت العلبة باكملها . قال نهاد :

ـ يا إلهي لقد احترقت ... ، وتدحرج ..

واخيراً وجدت الثقب ، ولكن المفتاح لا يدور داخل القفل ولا استطيع نزعه من مكانه فخاطبت نهاد قائلاً :

ـ ولك نهاد ربما نكون قد اتينا الى بيت غير بيتك ، هل أنت متأكد من أن هذا البيت هو بيتك .؟

تراجع نهاد الى الخلف ، أسند ظهره على الجدار المقابل ونظر الى الباب عن بُعد ثم قال :

ـ طبعاً إنه بيتنا ، الا يعرف الإنسان بيته .؟

في هذه الاثناء دار المفتاح ، فتحنا الباب ودخلنا الى البيت على رؤوس اصابعنا ، اشعلنا المصباح الكهربائي واخرج نهاد طقمي السموكين ولبسناهما ، ولكن كان اكبر من مقاسي بكثير فقال نهاد :

ـ إنه على مقاسك تماماً ، وكانه فصّل من اجلك .

فقلت :

ـ لكنه واسع جداً يا صديقي .

ـ لا يقال واسع والاصح ان تقول « فلـو » ، إنه الموديل الدارج هذه الايام .

ـ أكمام البنطال طويلة جداً ، ستكنس الأرض .

ـ حسن ، اطويها قليلاً ، هيا .... لنخرج بهدوء .

مشيت على رؤوس أصابعي ومشى نهاد خلفي وبدأنا بنزول الدرج ... فجأة سقط نهاد فوق ظهري وكأنه تابوت ، وصرنا نتدحرج فوق

السلم حتى نزلنا الى مكان مظلم جداً بقي نهاد مستلقياً فوق ظهري فقلت له :

ـ انزل عن ظهري ولا !!!!.

ـ دع رجلي كي انزل .

لقد حصل سوء تفاهم بسيط فبدل أن أمسك درابزون الدرج مسكت برجل نهاد وسقطنا ....

قال نهاد :

ـ على ما يبدو أن هذا البيت ليس بيتنا . لقد دخلنا الى بيت بالخطأ .

ـ ولكننا لبسنا ثيابك كما ترى .

ـ اعلم ذلك إنها ثيابي ولكننا عندما سقطنا دخلنا الى بيت الجيران . ففي بيتنا لا يوجد مكان كهذا .

اضيئت لمبة الدرج فسمعنا صوت زوجة نهاد وهي تقول :

ـ إنه بيتك .... إنه بيتك .

ـ زوجتي العزيزة . لقد احضرت الشاي ولكنك كنت نائمة فاشفقت عليك ولم اشأ إيقاظك من نومك كي لا أسبب اي إزعاج لك ... أين الشاي ... الشاي . إنه يوجه سؤاله لي . فقلت :

ـ الشاي معك .

ـ ولك ماذا فعلنا بالشاي .؟

هجمت زوجته علينا وبيدها عصا طويلة وهي تقول :

ـ شاي ها ... شاي ها !!!! ... اخرج من هنا .. هيا الى المكان الذي كنت فيه .

ـ اهدئي يا زوجتي العزيزة ... لا تضربيني ... ستعذرينني عندما أشرح لك .. يوجد معي ضيف ... والله عيب ... صديقي سيتزوج وأنا سأ .... لا تضربي ... يا !!! ... اهدئي واسمعيني ... انظري ... سأقول ...

رمتنا في الشارع وأغلقت الباب خلفنا بقوة ... بقينا فترة من الزمن على الأرض بعدئذٍ مشينا بتثاقل ، كان نهاد السكران يبكي وهو يقول :

ـ هذه هي زوجتي قليلة الشرف ... لقد قضت على حياتي ... ولكنْ ألا يستطيع الرجل خلال اربعين عاماً أن يحضر ضيفاً الى بيته ... أليس من حقي إحضار ضيوفي الى بيتي ؟ قلتِ اريد شاياً وها أنذا احضرتها لك ... أفعلْ كل ما تريدينه ... فهمت كل شيء رغم أني ثملٌ فقلت :

ـ يجب ان ننسى فكرة الذهاب الى الحفل .

ـ أيمكن ذلك ؟ ... بعد كل الذي فعلته لأجلكَ .

ركبنا سيارة وذهبنا الى بي اوغلو قال نهاد السكران :

ـ لن نستطيع أن نذهب بهذا المنظر الى الحفل .

لقد عاد الى رشده كما يبدو ، قلت :

ـ طبعاً .. .لن نذهب .

ـ سنشرب قدحين أو ثلاثة أقداح من الخمر كي نستعيد شجاعتنا ونذهب بعد ذلك .

ـ لقد أغلقت كل الخمارات .

ـ أعرف في الشارع الخلفي دكانا يبقى مفتوحا الى وقت متأخر من الليـل . سنأخذ من عنده زجاجة ونشربها .

شعرت بالتوتر بعد أن شربت زجاجة الخمر ، ووجدت نفسي حائرا بين أمرين ، أولهما ان هذا اليوم هو فرصتي الأخيرة للتعرف على والد الفتاة والثاني أن الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، وبعد قليل سيتفرق المدعوون .

مشينا بسرعة نسقط حينا وننهض حينا آخر ، وشعرت بحاجة ماسة للتبول من كثرة ما شربت خمراً . قال نهاد السكران :

ـ اريد ان ابـول .

ـ قف ... لا يمكن أن نبول هنا ، لنبحث عن مكان مناسب .

دخلنا الى زقاق خلفي ، ودخلنا بين براميل القمامة الموجودة امام إحدى الأبنية والتي قلبتها القطط والكلاب اثناء البحث عن الطعام مما ادى الى انتشار القمامة في كل مكان لقد وجدت ان هـذا المكان هـو المناسب للتبول غير انني فقدت صوابي وسقطت ارضا فتدحرجت فوق الأوساخ . حلمت انني فوق سريري غير أن اصوات الكـلاب والقطط ايقظتني من حلمي ... نظرت حولي فسمعت صوت نهاد يهذي قائلاً :

ـ يا زوجتي العزيزة ... ارجـوك أن تصمتي ... اسـمعي لما سأقول ... صديقي هذا سيتزوج و ...

صرخت بأعلى صوتي :

ـ نهااااااد ...

ـ جاءني صوت استغاثة :

ـ إي ي ي ...

ـ أين انت ؟

ـ انا هنا ، وانت ؟

ـ انا هنـــا ايضاً .

ـ هيـــا انهض ...

ـ لا أستطيع الخروج من هنا .

نهضت فوجدت نهاد مقلوباً ، راسـه في برميل القمامة ورجليــه في الهــواء ، امسكته من رجليه وسحبته . قائلاً :

ـ هيا سينفرق المدعوون .

ـ يجب ان اغســل وجهي .

ـ دعك من غسـيل وجهك الآن .

ـ لا يمكن ... لقد فعلوها فوق راسي قليلو الأدب .

ســـحبته قائلاً :

ـ هيا .. امش .

إن اصل المشكلة بدات في هذه القمامة : فعندما بدات بفك ازرار السروال تدحرجت على الاوساخ فدخلت الى سروالي جذور قصبة نبات الكرات مع اوراقها القاسية المنتهية باكياس البذار وبعد ان نهضت زررت سروالي غير ان جذور النبتة بقيت داخل السروال وتدلت الوريقات القاسية المنتهية باكياس البذار الى الاسفل من خارج السروال . اما بالنسبة لنهاد ، فقد كان ثملاً اكثر مني فنسي ان يذر سرواله ولكننا لم نكن مدركين للوضع الذي نحن فيه . وبهذا المنظر وصلنا الى باب فندق اللنطة ، وقبل ان ندخل قال نهاد :

ـ لنرتب منظرنا قليلا .

طبعا رتبنا منظرنا ودخلنا من باب الفندق ، وما ان وضعنا ارجلنا في الداخل حتى تسلطت علينا اضواء الكاميرات ... سقطت الاضواء على وجهي وكانها لكمة وجهت الى انفي فاصطدمت رجلي ببعضهما . الحمد لله انني لم اسقط على الارض . لقد كانوا يصورون فيلما وثائقيا سيعرض في دور السينما ، صوروا كل الموجودين ولكنهم ركزوا علينا اكثر من الجميع وبالضبط كان التصوير موجها نحو نصفنا السفلي . طبعاً انت تعلم سبب ذلك ، رجل يلبس السموكين وتتدلى من بين فخذيه ومن خلفه أوراق نبات الكرات التي شكلت مع أكياس البذار التي في طرفها شكلاً اشبه ما يكون بالشراشر واما الرجل الآخر فقد كان منظره اسوا بكثير .

هربنا من الاضواء ودخلنا الى الصالون فضحك الجميع باصوات عالية وصار الشباب والشابات يصرخون باعلى صوتهم :

ـ ابو الراشر .

ـ ابو الشراشر .

ـ انظروا الى ابي الشرار .

يا اخي ومن هو هذا الأبو الشراشر ؟! كان الموجودون يضحكون بشكل جنوني . اما أنا فقد كنت جدياً للغاية . ولم افهم أنني سبب كل هذه السخرية ، بل ظننت أنهم يسخرون من نهاد لأنه ثمل اكثر مني .

ــ يا نهاد ، ولك قف بلا اهتزاز ، إنظر إنهم يسخرون منك .

ــ وهل في شخصيتي أو في مظهري شيء يدعو الى السخرية ، إنهم يسخرون منك .

ــ وهل في مظهري ما يدعو للسخرية ؟.

نظرنا يميناً ويساراً ، فقد كنت ابحث عن أيسيفين .

قال نهاد السكران :

ــ انظر ... إنه هنا .

ــ مــــن ؟

ــ السفير الفرنسي .

ــ دعك الآن من السفير يا ...

ــ تعال سأعرفك عليه ، إنه صديق حميم ، لا شك أن والد الفتاة سيعطيك علامات أكثر في الامتحان اذا ما راك مع السفير الفرنسي .

الحمد لله لقد وصلنا الى طاولة السفير دون أن نسقط على الأرض أما النساء والفتيات الجالسات على طاولة السفير فقد هربن بعيداً بعد أن وضعن أياديهن على أفمامهن وأخرجن أصواتاً « هه » « به » .

ضغط نهاد على يدي السفير قائلا :

ـ كيف حالـك ؟

ـ مرسي ... وانت مسيو نهاد ؟

ـ مرسي ... احب ان اقدم لك صديقي حسن ...

صافحت السفير يدا بيد . وبعد أن تحدثنا جملة او جملتين قال السفير :

ـ بردون(*) ... وابتعد عن الطاولة .

قال نهاد :

ـ اين فتاتـك ؟

قلـت :

ـ اني ابحث عنها .

وما إن نظرت الى إحدى الطاولات حتى التقت نظراتي مع نظراتها حيث كانت تجلس مع ابيها وامها وعندما راتني ادارات راسها في جهة اخرى ، ما معنى هـذا ؟ ومن الذي يجلس معها ؟ مشيت نحوها فجاء رجل نحوي وقال :

ـ برودن مسيو ...

واراد بايماءة من راسه ان يدلني على الطريق بغية إظهار اوراق الكرات المتدليلة من بين فخذي . وما أن نظرت الى المكان الذي دلني عليه الرجل حتى وقع نظري على سحاب سروال نهاد المفتوح فقلت :

ـ تفووو ... لعنك الله يا نهاد ، لقد اخجلتني بين الأكابر .

(*) بردون : عفوا .

ـ وماذا فعلت لك ولهم ؟! . . .

ـ وهل بقي شيء لم تفعله ؟... انظر الى سروالك ... كلسونك الابيض ظاهر من فتحة السروال فقال نهاد :

ـ اف ... يامه ..

وخشية أن يراه الناس استدار نحو الخلف كي يزر سرواله ، ولكن ما الفائدة ونحن نقف في وسط الصالة ، فقد رآه الذين كانوا خلفه .

تركته واتجهت نحو أيسفين التي غادرت طاولتها عندما رأتني متجهاً نحوها . امسكت بها في الممر ، كانت تبكي بمرارة . فقلت لها :

ـ لماذا لا تعرفيني على والدك ؟

ـ أبهذا المنظـر ؟

ـ وما به منظري ؟ الم تقولي انك تحبينني ؟

طبعاً أنا احبك ولكن ليس بهذا المنظر بل بشكلك الطبيعي .

فظننت انها لم تحبني باللباس الرسمي ... فقلت لها :

ـ وماذا باستطاعتي أن أفعل ، اللباس الرسمي إجباري .

ـ أهذا هو لباسك الرسمي ؟

ـ طبعاً لقد فعلت هذا كي يليق منظري بحفلة كهذه .

ـ ازداد بكاؤها فقلت :

ـ يا حبيبتي ، أقسم بالله أنني لبست هذه الثياب كي أنال إعجاب والدك ووالدتك هربت ايسفين وهي تبكي ، وكلما اتجهت نحو جهة ما كانت الأصوات تعلو والقهقهات تزداد وهم يرددون :

ـ ابو الشراشر ، أبو الشراشر .

بحثت عن نهاد السكران فوجدته وخرجنا من هناك وانا أبغي الانتحار اخذت من نهاد عشر ليرات ، اتعرف أين كنت ابغي الانتحار ؟ في البيوك اضا . من فوق الصخرة التي شهدت ايسفين وهي تقول لي « أنا أحبك » . سأرمي نفسي من أعالي الصخور الى البحر .

ركبت اول باخرة متجهة نحو البيوك اضا ، اشتريت من الميناء زجاجة خمر ومشيت . جلست فوق تلك الصخرة . ابكي تارة وأشرب تارة أخرى ، وبعد ذلك وقفت على قدمي ، وعندما نظرت الى الاسفل نحو البحر رأيت أوراق نبات الكرات المتدلية بين فخذي فسقطت بمكاني .

إيه ... لقد وضع نهاد السكران وجهي في الطين يا اخي ، صوروني فيلما بالشراشر وعرض هذا الفيلم في السينما تحت إسم الوقائع المحلية ولكن الرقابة منعته من العرض ، ومن يومها أصبح اسمي حسن الشراشر وكان نهاد السكران هو السبب في ذلك .

* * *

ـ الم تر تلك الفتاة بعد تلك الليلة ؟

ـ احياناً أراها هنا او هناك ، ولكنها ما ان تراني حتى تنظر الى الاسفل .

ـ من اجل النظر الى ساقيك ؟.

ـ لا يا اخي ، من شدة خجلها .

(*) الشراشر : الذنب : أطرافه وذبذبه وما انتشر منه .

يا سيدي الولد

دخلت من الباب الزجاجي الدوار وقلت للرجل الواقف على اليمين الذي ظننت انه يعمل بواباً : أين غرفة السيد المدير ؟ .

اجابني الرجل بإيماءة من رأسه مشيراً الى اليمين ، شعرت أن هذا الرجل مغرور بطبعه أو انه ازداد غروراً لأنني استشرته بأمر ما .

وجدت مصعداً في الطرف الذي اشار إليه الرجل ، حالما فتح الباب سألني رجل أعتقد انه عامل المصعد :

ــ الى ايــن ؟

قلــت :

ــ الى غرفة السيد المدير .

احسست أن عامل المصعد قال : « هذه الدنيا مليئة بالأغبياء »، وذلك من خلال الأصوات التي خرجت من فمه نتيجة لإلتقاء طــرف لسانه مع الأسنان « جك » « جك ، جك » قال :

ــ الا تراني واقفاً هنا ، استشرني على الاقل .

ــ حسناً ، أريد مقابلة السيد المدير .

ــ انتظر حتى يأتي ثلاثة أشخاص آخرين .

ــ ولكني أريد أن أرى السيد المدير .

ــ اصعد من مكان آخر ... فالمصعد لا يصعد بأقل من اربعــة اشخاص .

كما يبدو أن هذا الرجل قد فرح كثيرا لأنه جعلني أنتظر ، صار يمشي وهو يشبك يديه وراء ظهره . جاء رجل آخر أوقفه عامل المصعد قائـلا :

ــ والك . . . هل سنشرح لكل رجل بدوره . هذه الآلة لا تصعد إلا بأربعة أشخاص على الأقل .

أصبحنا أربعة بمجيء امرأة قابلنا ها بروح مرحة كي تصعد . لكن عامل المصعد وبحركة سريعة أغلق المصعد ووضع المفتاح بجيبه . قالت المـرأة :

ــ نريد أن نصعد الى الأعلى .

رفع عامل المصعد أنفه الى الهواء أكثر وأكثر وقال :

لو جئت قبل قليل لصعدت . أما الآن فقد بدأت استراحة الغداء . أين كنتِ حتى هذا الوقت ؟ تعالي الساعة الواحدة والنصف عندئذ سيبدأ المصعد بالعمل .

ــ ولـماذا ؟

أشار بسبابة يده اليمنى الى ساعة موجودة في ساعده الأيسر وقال :

ــ أين رأيتم مصعداً يعمل في استراحة الغداء ؟ ممنوووع ، تعالوا في الساعة الواحدة والنصف ، وإصعدوا الى المكان الذي تريدون .

لم يكن لدي أي عمل في ذاك اليوم ، فقط أتيت كي أبارك للمدير الجديد . لقد كان شاباً في مقتبل العمر كنت افخر به كثيراً . أفتح له مكتبتي ويأخذ منها ما يحتاج مـن الكتب والمراجع . وكم كان يزداد

سروري عندما كان يردد « أنت الذي ربيتني » ولكني لم أره منذ ذهابه الى أوروبـا .

تناولت طعام الغداء في المطعم ، ثم أمضيت بعض الوقت أمام واجهات المحلات وعدت الى الدائرة في الساعة الواحدة والنصف ، كان رقمي العشرين في طابور المصعد . ولما أتى دوري ركبتت مع ثلاثة أشـخاص آخرين بالإضافة لعامل المصعـد ، قلت له من جديد أنني أريد مقابلة السيد المدير . نزل الجميع من المصعد ، فتح العامل الباب فسألته :

ـ في هذا الطابق ؟

قـال :

ـ مـن ؟

ـ السيد المدير ، ألم اقل لك أنني أريد مقابلته .؟

ـ ولِمَ لَمْ تقل منذ البداية ... اخرج من هنا ثم انزل طابقين ، لان النزول بواسطة المصعد ممنوع .

نزلت طابقين ، كان ممر هذا الطابق وسيعاً للغاية والصالون كذلك . يوجد أبواباً على طرفي الممر ، ويجلس بواب على كل كرسي موضوعة أمام باب كل غرفة .

سألت أقرب بواب :

ـ اين غرفة السيد المدير ؟

اشار الى لوحة من التوتياء موضوعة على الباب وقال :

ـ الا تعرف القراءة ؟

مكتوب على اللوحة « معاون المدير » .

ـ أين غرفة السيد المدير ؟

اشار بطرف أنفه الى الصالون ، ذهبت الى هناك فوجدت ثلاثة أبوابا لم توضع أية لوحة على أيٍ منها . ذهبت نحو رجلٍ يسند يده على حافة النافذة ويقرأ الصحيفة وسألته .

ـ عفواً ، أين غرفة السيد المدير ؟

ومن دون أن يرفع نظره عن الصحيفة قال :

ـ أيُ مدير ؟

وعندما صمتُ ، تابع :

ـ أي مدير تريد ؟ المدير الأول أم الثاني أم الثالث ؟

ـ لست أدري . وكل ما أعرفه هو أن أسمه جيتين .

ـ أمم ... أتقصد الشاب النحيل ، ... ذو الأكتاف الهابطة ؟ ذو العينين الذابلتين . يا لقلة التربية ... خاطبته بلهجةٍ قاسية :

ـ أياً كانت أوصافه ، أريد الذي يدعى جيتين ...

ـ عرفته .. عرفته ، ذو الشعر السابل ، نعم إنه هو ، يمشي ببطء ... أليس كذلك ؟ وعندما يتكلم لا تفهم ما يقوله ، نعم إنه هو بشكل مؤكد . يعني ذلك أنك تريد المدير ذو الأنف الحاد .. نعم إنه هو المدير العام ... وماذا تريد منه ؟

توترت أعصابي فقلت :

ـ وما دخلك أنت ؟

ـ أنا بواب المدير العام .

ـ الا يوجد مديراً لمكتبه ؟

ـ يوجد وماذا سيتغير في الموضوع ؟

ـ قل له أني أريد مقابلته .

ـ ألديك موعد سابق ؟

ـ كــلا .

ـ لا يمكن مقابلة المدير العام بلا موعد سابق .

ـ كل ما أريده منك هو أن تخبره أني اريد مقابلته .

ـ أيمكن أن أسمح بالدخول لكل المراجعين ؟

اعطيته بطاقتي وقلت :

ـ اعطه هذه ..

اخذ البطاقة بإشمئزاز ودخل من احد الأبواب الثلاثة ، ولم يخرج بعد ذلك . وعندما يأست من خروجه نزلت الى الطابق السفلي وخرجت من المبنى ، فخطر ببالي أن أتصل به هاتفياً .

اتصلت بجيتين هاتفياً من مقسم البريد ، فرح كثيراً عندما عرفني وقــال :

ـ ارجوك ان تأتي الى مكتبي .

فقلـت :

ـ سآتي حالاً .

عندما دخلت الى المبنى وجدت جيتين ينتظرني عند الباب الرئيسي . قال لي بعد ان تصافحنا :

ـ كنت سأذهب إليك ولكني لم أعرف مكان إقامتك .

قلت له ونحن في المصعد :

ـ لقد أخجلتني يا جيتين . لماذا خرجت من مكتبك لاستقبالي ؟

ابتسم قائلاً :

ـ سأشرح لك في المكتب .

ادركت انه لا يريد ان يسمعه عامل المصعد . دخلنا الى مكتبه . فعلاً كان مكتباً ملفتاً للنظر يليق بمدير عام ...

قلـت :

ـ يا إلهي يا جيتين . ما زلت شاباً . لو اختلطت بين طلاب المدرسة الثانوية . لما فرقتك عنهم ... هل أصبحت في الثلاثين ؟

ـ يا أخي لقد أصبحت في الثالثة والثلاثين .

ـ إن استلامك لهذا الموقع الهـام وأنت في الثالثة والثلاثين شيء رائع . لقد أتيت لأبارك لك بهذا المركز الحساس ـ أقسم بالله لا يظهر عليك انك في الثلاثين من عمرك .

ـ نعم ... ولهذا لا يوجد أحد هنا يجد أن رتبة مدير عام تليق بي فلـو لم أنزل الى البـاب الرئيسي لاستقبالك لما استطعت مقابلتي مهما حاولت .

طبعاً لم أخبره أنني أتيت إليه ولم أستطع مقابلته . قال :

ـ لقد حاصروني جيداً ، فلا يسمحون لأحد بدخول مكتبي .

دهشت لما يقوله فسألته :

ـ ومن الذي يحجبك عن الناس ؟

ـ في الحقيقة أريد أن أشرح لك كل شيء ، فأنا بحاجة لأحدٍ كي يسمعني والحمد لله أنك أتيت الى هنا .... بعد عودتي من أوروبا عيّنت في أنقرة وبعد ذلك ترقيت درجتين وعيّنت كما ترى مديراً عاماً لهذه الشركة . كان المدير السابق رجلاً بديناً ذو كرش وكتفين عريضين .... دهش كثيراً عنـدما رآني فخاطبني وكأنني طفـل صغير وقال « ما شاء الله ، ما زلت شاباً يا سيدي الولد .... إنشاء الله سيكون النجاح حليفك .... » .

فقلت لـه بعصبية : « أنا اسمي جيتين » ، انزعج كثيراً ولكنـه استمر بمخاطبتي بنفس اللهجـة « يا سيدي الولد » أمـام الموظفين والبوابين والحجاب وأثناء الاستلام والتسليم كـان يردد دائماً عبارة « التجربة مهمة جداً ... يا سيدي الولد » . أدركت وقتئذٍ أن الرجل يعاني من عقدة نقص المعرفة ، إذ أنه لم يستطع استيعاب أن يستلم شابٌ أصغر من ولده مكانه ، قال : « يا سيدي الولد ، إن صادفتكَ أية مشـكلة لا تنسى استشارة البـواب عبـد الداية ، لأنه يستطيع مساعدتك » . فقلت «أرجوك يا سيد ، لست ممن سيتعلمون من بوابه» فقال « لا !!!! ... لا تقل هذا يا سيدي الولد يجب الا تغريك المناصب

والا تنظر إليه بصفته بواباً او حاجباً او خادماً . لقد خدمت في وظائف الدولة اكثر من ستة وعشرين عاماً .

واستلمت خلال هذه الخدمة الطويلة مناصب مهمة جداً وأستطيع أن أعترف لك بانني استفدت كثيراً من البوابين . خاصة وأن عبد الداية يملك خبرة وتجربة طويلة وغنية . يجب أن تستفيد من خبرته وذلك من أجل منفعتك » .

بعد أن انهى كلامه ضغط على الجرس وقال للبواب عبد الداية الذي دخل الى المكتب فوراً « يا عبد الداية ، إن المدير العام الجديد ما زال شاباً وقليل التجربة » وتابع « يجب أن تسير الأمور على نفس الوتيرة ، كما كانت سابقا ، فلا تبخل بحسناتك وبمعلوماتك عليه » . فقال البواب « إنه مثل ولدي . ومساعدته من إحدى واجباتي » .

قلت للحاجب « هيا اخرج » فخرج .

انه يتظاهر بحمايتي كي يتقزّمني ويقضي على صلاحياتي ومسؤولياتي . وعندما انتهت أمور الاستلام والتسليم قال لي « اسمح لي بأن أقدّمك للزملاء يا سيدي الولد » .

فقلت « ارجوك لا تزعج نفسك » . وما أن مشينا جنباً الى جنب في مكاتب الدائرة حتى اصبحت كلمته هي المهمة لأن كل شخص يستمع له . اجتمع المدراء والمساعدون والموظفون في الصالون ، فأخرجني المدير العام السابق من المكتب مشبكاً ذراعه بذراعي محاولاً إظهار محبته وحمايته لي . وكما تعرف يا أخي أنا لست خضوعياً لهذا الحد ولكني كنت اقول « على كل حال سيذهب ولن أرى وجهه ثانية » .

خاطب المدير العام الموجودين قائلاً « أيها الزملاء المحترمون أقدم لكم المدير العام الجديد » ووضع يده فوق كتفي وبعد ذلك امسكني من

ذقني كطفل وقال : « أنا واثق من أنكم لن تبخلوا باحترامكم لمديرنا العام الشاب » . قال هذا وقرصني من خدي .

لعنة الله ، لقد حقّرني أمام الجميع . يا إلهي ماذا سأفعل ؟ لو لكمته على وجهه سأضع نفسي في موقف حرج لا أحسد عليه . وليس حلاً أن أترك الجميع وادخل الى مكتبي ، لقد توترت أعصابي ولم أعد أقوى على التفكير فابتسمت وصمتُّ وأما هو فقد تابع حديثه وبين الحين والآخر يقرصني من خدي مظهراً حبه لي قال : « أيها الزملاء المحترمون المثل يقول العقل في الرأس وليس في العمر فلا تنظروا لكون المدير العام ما زال شاباً . ولا تنخدعوا بذلك ، فقد تعلّم في أوروبا وقرأ كتباً كثيرة ولا أشك بأنكم وأصدقاءكم المناوبون بعد الظهر ستحبونه وتطيعون أوامره مثلما كنتم تحبونني وتطيعون أوامري ولا تبخلوا أيها الزملاء بتجاربكم على سيدي الولد المدير العام لأن التجربة مهمة جداً كما تعلمون ، فلا تحرموا سيدي الولد ، مديرنا العام من تلك الخبرات ، هل تعدوني بذلك ؟! » .

ارتفعت أصواتهم « نَعِدكم » ضمن جوٍ من الضحك . أما أنا فقد احمرّ وجهي من كثرة الدم الذي احتقن فيه ، فكّرت بأن أتكلم كلمتين لأضع حداً لهذا الرجل فقلت « اسمحوا لي .... » ولكن المدير العام ضمّ وجهي الى صدره الضخم مما ادى الى إحتقان الكلام في فمي وكدت أختنق ، وبعد ذلك قبلني المدير العام السابق وخاطب الموجودين قائلا « استودعكم الله » . وصار يبكي فبكى الحاضرون على بكائه . حتى النساء أوصلنه باكيات الى الباب الرئيسي . وبقيت وحدي في الصالون .

عندما أتينا من أنقرة لم نجد بيتاً للإيجار يتناسب مع النقود التي نملكها فأقمنا في بيت « بالدز » وبدأنا البحث من جديد ولكن لم نوفق بسبب غلاء البيوت .

أما بالنسبة للدائرة فقد اصبح كل شخص فيها يعاملني بأبوة قائلاً « يا سيدي الولد » حتى ضاربة الآلة الكاتبة المتقدمة بالسن قليلاً كانت تناديني قائلة « يا سيدي الولد » يا اخي كدت اصاب بالجنون وانا أسمعهم يقولون « سيدي الولد فوق ... سيدي الولد تحت .. ذهب سيدي الولد ... اتى سيدي الولد .... » وكأنني لست مديرا عام هذه الدائرة . بل يتيما فيها وكل شخص يرى نفسه بانه مسؤول عن حمايتي .

ولما راجعت الملفات والأوراق التي في الدائرة اكتشفت ان الفساد قد تغلغل الى ابسط الأمور . ولم اتمكن من فهم اي شيء في هذه الدائرة لأنهم أفسدوا ترتيب المراجعات بحيث تتوزع نتائج الغش على الجميع . اينما اضع يدي اجد نفسي جاهلا بخفايا الامور . ولا يمكن ان تكتشف من المسؤول عن كل هذه الأمور لان الفساد والرشوة تبدأ من البوابين ورؤساء الاقلام وحتى اعلى منصب في الدائرة .

صرت اعمل من اجل اصلاح الفساد حتى ساعات متأخرة من الليل ، دخل البواب الى مكتبي في إحدى المرات وقال بحنان :

ـ يا سيدي الولد . لقد اوصاني مديرنا السابق بك خيراً ....

فجأة توترت اعصابي فصرخت :

ـ هيا اخرج من هنا .

فقال بابهجة اب يغفر لولده العاق :

ـ على رأسي يا سيدي الولد . ساخرج ولكن اريد ان اقول أمرا لمصلحتك .

فصرخت بغضب « اخرج من هنا » فلم يكترث بما اقوله فبدأ يشرح لي ويعلمني مبتدئا كلامه بـ « يا سيدي الولد » . قال :

ـ يا سيدي الولد ، منذ استلامك لهذا المنصب وانت تأتي كل صباح بنفس الوقت مع أدنى الموظفين رتبةً وتنصرف مع انصرافهم وأحياناً تغادر مكتبك بعد انصرافهم ، فإذا استمر الوضع على هذه الوتيرة فلن يكون بينك وبينهم أي فرق .... وستتدنى قيمة جنابكم بنظرهم الى أدنى حد وقد لا يعطوك أية أهمية ، عفواً يا سيدي الولد لا يمكنك اهمال قيمة التجربة والخبرة . صار لي في هذه الوظيفة أكثر من أربعة وعشرين عاماً عاصرت خلالها مدراء كثر ، إنني بعمر والدك يا سيدي الولد .

ـ اخرج من هنا ... هيا اخرج من هنا !!! .....

لولا خوفي من الفضيحة لرمتيه بشيء ما على راسه . ولم أجد طريقه للتخلص منه أفضل من طرده من العمل :

ـ هيا اخرج من هنا ... لا أريد أن أراك في هذه الدائرة بعد الآن.

بعد قليل جاء الى مكتبي معاوني والمدير الثاني وبدأنا بالحديث وكلما انتهى كلام الأول يبدأ حديث الآخر :

ـ يا سيدي الولد ، انت محق ، ولكن هذا الرجلّ خبير في كل شيء ، طبعاً جنابكم من يقرر يا سيدي الولد ، ولكن من الافضل الاّ تطرد هذا البواب ، إننا نتحدث معك بصفتنا اصدقاءك المجرّبين ونريد مصلحتك .

وما أن غادرا المكتب حتى أتى غيرهم وهكذا .. عندئذٍ فهمت انهم حلف واحد ابتداءً من البواب وحتى المدير .

وجدت نفسي أمام أمرين ، الأول ، إذا ما طَردتُ هذا البواب من عمله سيصبح الجميع أعداءً لي وسيَفسَدُ العملُ بالكامل ، والثاني ، إذا غيرت مكانه سأخسر تجاربه .

في يوم من الأيام كنت منكبا على عملي في المكتب حين دخل نفس البواب وقال :

ـ يا سيدي الولد . إذا سمحت لي أريد أن احدثك قليلاً ولا أريد ان يذهب كلامي هدراً . إنك ذكرى غالية تركها لنا مديرنا السابق . منذ مجيئك الى هذه الدائرة وانت تنجز كل الاعمال بنفسك يا سيدي الولد. دع هذه الأعمال للآخرين إنك مدير عام ولهذا يجب الا تعمل شيئاً يا سيدي الولد .

ضحكت من شدة غضبي وقلت :

حسن .... حسن

اتى في يوم آخر وقال :

ـ يا سيدي الولد . إنك تسمح لكل شخص بالدخول الى مكتبك لتنهي له عمله . فإذا انهيت الأعمال بهذه السهولة لن يعطوك اية اهمية . ولهذا يجب أن يأتي المواطن ويذهب اكثر من مرة حتى يعرف مدى صعوبة عملنا . اقسم بالله اني اقول هذه الكلمات كي اصون مصلحتك يا سيدي الولد . حتى أن اضرار تصرفك لحقت بنا أيضاً . نحن البوابون في هذه الدائرة . لم يبق احد يحترمنا إذ أن المواطن الذي لديه عمل هنا يأتي ويدخل متى يشاء دون أن يراجعنا يا سيدي الولد .

واتى في يوم آخر علمني الا استقبل احداً دون موعد سابق. فعلى كل مواطن يريد ان يقابلني أن يأخذ موعداً قبل اسبوع ، وعليه الا يتكلم معي مباشرة بل يصل الى مكتبي عن طريق التسلسل من الحاجب الى المكتب الى الموظفين الى المدراء الثلاثة وبعد ذلك يصل الى مكتبي .

ـ وإلا فلن تجد احداً يعطيك اية اهمية يا سيدي الولد . المدير العام . هو من يجلس في مكتبه دون عمل يكون اكثر ثقلاً من الآخرين .

بدات افهم أساس الفساد في هذه الدائرة ، من المؤكد انه لا يوجد موظف في هذه الدائرة يعيش من راتبه فقد عملوا ترتيبات تؤمن لهم اضعاف رواتبهم وبذلك يحصلون على أموال مثل التراب ، وبسبب أسلوبي الجديد في إدارة الشركة انقطعت عنهم هذه المعونات مثل : البخشيش والرشاوي والبراطيل وغير ذلك .

بينما كنت أبحث عن طريقة لإصلاح الفساد في هذه الدائرة كان أهل بيتي يبحثون عن بيت مناسب للإيجار ، وأخيراً وجدوا بيتاً أجرته الشهرية ستمائة ليرة ولكن صاحبه يطلب الدفع مقدماً .

قالت زوجتي :

ـ سمعت أن صاحب البناية يعمل موظفاً في دائرتك ، قد يتراجع عن شروطه إذا ما قابلته وبذلك لا يأخذ منا إجرة سنة سلفاً .

فقلت :

ـ ما اسمه ؟

ـ لا شك أنه أحد مدراء الشركة ، اسمه سلام بيك .

لا يوجد أحد بهذا الاسم في دائرتنا ، ذهبت يوم الأحد مع زوجتي كي نرى البيت الذي سنستأجره ، إنه عبارة عن شقة واسعة في بناية كبيرة مؤلفة من ثلاث طوابق . . . وصاحب البناية يسكن في إحدى الشقق فذهبنا إليه ، أتعرف من هو صاحبها ؟ إنه عبد الداية .

يا أخي كدت أجن ، ففي الوقت الذي أبحث فيه عن شقة صغيرة لاسكن فيه . يملك بواب مكتبي بناية كبيرة كهذه ، وبإختصار ، قال لي :

ـ يا سيدي الولد ، إنك من ميراث مديرنا السابق ولهذا لن آخذ منك إجرة سنة مقدماً بل سأكتفي بستة اشهر .

ولما لم افتح فمي تابع :

ـ إن قبلت. تستطيع ان تكسب اجرة سنة كاملة خلال شهر واحد.

سـألته :

ـ وكيف ؟

ـ يكفي أن ترفض استقبال من يريد مقابلتك ، لأنك لم تترك ني ائـة فرصة عمل .

وبإ ختصـار ، رجعت الى البيت .

وهكذا يا أخي أصبح لي في هذا المنصب قرابة الشهرين وقعت في حيرة من امري خلال هذه المدة ، ماذا سأصلح ومن أين سأبدأ بالأصلاح؟ لقد شكل جميع الموظفون جبهة واحدة متماسكة الى حدّ غريب ، فإذا ما وضعت يدي على اي فساد في هذه الدائرة سينتهي كـل شيء كمـا تنسل خيوط الجراب . ماذا بإمكاني أن أفعـل ؟ لقـد حاصروني فلا يسمحون لأحـد بمقابلتي ويصـعبون الأمـور أمـام المراجعين ، عيّنت استعلامات في الأسفل من أجل القضـاء على هذه المحاصرة ولكن البوابين والحجاب يخلعون لوحة الإعلانات ولا يظهروها لأحد . ولهذا نزلت الى الأسفل كي اقابلك ولولا ذلك لما سمحوا لك بمقابلتي مهما حاولت .

هناك اشخاص يأتون الى الدائرة من أجل مقابلتي عشرة أو خمس عشرة مرة ولكن دون فائدة .

فقلت لجيتين :

ـ وماذا ستفعل الآن ؟

ـ سأذهب الى أنقرة وأطلب مقابلة الوزير ، خاصة أن الذي استلم الوزارة رجل يعرف الله ، سأشرح له كل شيء .

ـ جيـد ، وماذا ستطلب منه ؟

ـ إذا لم ينقل هؤلاء الموظفين الىمكان آخر ويعين بدلاً منهم موظفين آخرين ، فلن نستطيع القضاء على الفساد ، أو على الأقل يغير موظفاً واحداً من كل ثلاثة .

قلت :

ـ إنشـاء الله .

وبعد هذا اللقاء فارقت جيتين وأنا حزين لوضعه .

بعد عدة أشهر سمعت أن جيتين قدّم استقالته ، وفي أحـد الأيام قابلته في الباخرة ، كان حزيناً جداً ، سألته عن سبب استقالته .
فقـال :

ـ ذهبت الى الوزير وشرحت له كل شيء ... كاد الوزير أن يبكي وقال « أعرف كل هذا ، ولكن هذه الأمور ليست موجـودة في دائرتك وحسب بل موجودة في كل الدوائر .

الطريقة الوحيدة التي يتم بوساطتها القضاء على الفساد هي تغيير كل موظفي الوزارة . ولكن أين سنجد بدلاً منهم ؟ ثم هل نملك القدرة على ذلك ؟ فسألت الوزير « وماذا سنفعل ؟ » فأجاب « إما أن نعتاد على ذلك أو نقدم استقالاتنا » وبعد ثلاثة أشهر قدمت استقالتي .

فسـألته :

ـ والوزيـر ؟

ـ مازال في منصبه ، ولكني سمعت انهم سيعينون وزيراً آخر بدلاً منه وهذا هو ما كتبته الصحف عن الأزمة الوزارية .

قلت :

ـ إنها افضل طريقة ، تغيير وزير واحد افضل من تغيير كل الوزارات .

قال :

ـ لا ينتهي الأمر بتغيير الوزارات .

قلت :

ـ وماذا تفعل الآن ؟

قال :

ـ لا شيء عاطل عن العمل .

بعد هذه المحادثة بقيت مدة طويلة لم أر فيها جيتين ، سمعت أنه

اهتم بالسياسة وكتبت عنه الصحف كثيراً ، إنه سياسي ممتاز ، وبعد ذلك أصبح وزيراً ولكن ليست له أية علاقة بالدائرة التي كان يستلمها، واستلم بعد ذلك عدة وزارات .

كم هو مؤسف أنه لم يستلم الوزارة المسؤولة عن الدائرة التي كان قد استلمها فيما مضى .

ربما لو استلمها الآن لكان باستطاعته إصلاحها . ومع ذلك فقد فرحت لمنصبه الجديد . فهو إن لم يستطع إصلاح الوزارة فقد استطاع على الأقل إصلاح وضعه .

عندما قرأت خبر استلامه للوزارة لم أنس أن أرسل له برقية تهنئة كتبت فيها « يا سيدي الولد ، أهنئك على منصبك الجديد » .

فكتب لي رسالة يرجوني فيها أن أذهب الى أنقرة من أجل مقابلته. ذهبت إليه فعينني في الوزارة براتب قليل حوالي ألف وثمانمائة ليرة ، إنه راتب ضئيل ولكن لا أعمل بعد الظهر ، ولا أحد يسألني إن ذهبت أم لم أذهب . ولكن عندما لا يكون عندي في البيت اي عمل ماذا سأفعل في البيت ؟ أفضل شيء أن أذهب الى الوزارة على الأقل من أجل التسلية .

* * *

كيف قمنـــا بالثـــورة

حقيقة ، لو كنتم منصفين قليلاً ، لأدركتم واعترفتم ، بأننا الأصحاب الشرعيون للسلطة الحالية . وأما عن سبب عدم تواجدنا في السلطة وفي إدارة دفة الحكم فهذا يرجع لسوء حظنا من جهة ، ولخطأ بسيط ارتكبناه من جهة أخرى .

لقد قمنا بالثورة واستلمنا السلطة ، ولكن ، مع الأسف ، لم يسمع بثورتنا أي إنسان ، وكما هو معلوم ، لا يمكن أن تنجح ثورة ما وتستمر ما لم تسمع بها الجماهير العريضة .

فكّروا قليلاً واستنتِجوا ، كم هو مأساوي موقفنا ، في ليلة واحدة قمنا بالثورة وسقطت السلطة في أيدينا ، ولكننا لم نستطع إخبار أحد من الجماهير باستلامنا للسلطة .

ثقوا تماماً بأننا حسبنا كل شيء بدقة تامة ، لدرجة أننا أخذنا بعين الاعتبار أصغر الأمور وأقل الاحتمالات ، كما أنني واثق من أنه لم تُدرس ثورة قامت قبل هذا التاريخ مثلما درسنا ثورتنا ، إذ أنها تمت دون أخطاء . غير أننا نسينا أمراً بسيطاً للغاية ... النظر الى التقويم . نعم، لو أننا نظرنا الى التقويم لما غاب عن أذهاننا بأننا في منتصف شهر تموز . ويعني ذلك أن الجو في هذا الوقت بالذات سيكون ماطراً في أوڤريكا ، ربما يكون الهيجان والإضطراب الذي أصاب الأصدقاء الذين في لجنة قيادة الثورة هو الذي منعنا من الاستماع للنشرة الجوية من الإذاعة . ولم نفكر بالإتصال بإدارة الأرصاد الجوية لمعرفة أحوال الطقس .

هل تعلمون ماذا يعني هطول الأمطار ولو بشكل طفيف في أوڤريكا في منتصف تموز ؟! إنه يعني توقف الحياة والشلل التام للبلد ... حالما

تهطل أول قطرة ماء من السماء . تتعطل الإذاعة وشبكة الهواتف وتنقطع الماء والكهرباء والغاز وتتعطل حركة البواخر والقطارات والطائرات والباصات والسيارات . ولكننا ولسبب وجيه وجدنا ان الفرصة سانحة للقيام بالثورة في منتصف شهر تموز ، وهذا السبب هو الحرارة العالية التي تعم أنحاء أوڤريكا مما يجعل عاصمتنا متراك بوليس خالية من السكان إلاّ من بعض الفقراء الذين يبحثون عن لقمة العيش . اما الوزراء ورجالات الدولة والشخصيات المعروفة في أوڤريكا وعائلاتهم المحترمين الذين لا يحملون حرارة الطقس ، فهؤلاء يذهبون الى المدن الجبلية أو الى المناطق الريفية ولا يبقى احد في الدوائر الحكومية المتواجدة في متراك بوليس عاصمة أوڤريكا إلاّ بعض البوابين النائمين على كراسيهم أمام كل دائرة . أي ان الدوائر الحكومية تكون خالية تماما . في وضع كهذا لا يبقى على الثوار ، كي يستولوا على الحكم ، إلاّ فتح الغرف والدخول الى الدوائر . يستطيع كل مواطن في وقت كهذا – إن كان يشعر بالملل – القيام بثورة . إذ يكفي أن يقول « هيا يا أصدقاء لنعمل ثورة » .

ما زالت الدهشة تصيبني ، كلما تذكرت ما حدث ، فكيف نحسب كل شيء وننسى هطول المطر في منتصف شهر تموز في أوڤريكا ... أي حماقة هذه يا إلهي !؟

وزعت المهام على أعضاء الثورة كما يلي : أنا والعميد عبد الحجاب والملازم أول عبد البوتل سنهاجم الإذاعة . الفريق أول حسين ماتراكي باشا مع ثلاثة من أصدقائه سيهاجمون مطعم الطعام اللذيذ ، القائمقام محمد مرديباني مع أربعة من أصدقائه سيهاجمون مركز البريد وغرف نوم المدرسة الثانوية الداخلية للبنات . اما الهجوم على الملعب البلدي والمسلخ فقد كلف به خيام باشا وفرقته العشارية .

باختصار ، وزعنا مهام الإستيلاء على المراكز الحساسة على أعضاء مجلس قيادة الثورة . ولم ننس ان نكلف موظف سرية التاديب كورحميد

/ متقاعد الآن / بمهمة الإستيلاء على السجن . وذلك كي يؤمن الأماكن المتازة في السجن لأعضاء قيادة الثورة إذا ما فشلنا بمهامنا . أي أننا أخذنا أدق الأمور وأصغرها بعين الاعتبار .

وفي ساعة الصفر ، تحركنا للإستيلاء على الدوائر الحكومية ، قال العميد شهاب الجناب ، وهو من مجلس قيادة الثورة « يجب ألاّ نستولي على المصرف المركزي » . ولما سأله الفريق أبو الفضال « لماذا ؟ » . أجاب « كي لا نهدر فواتنا بتوزيعها على أماكن عديمة النفع » . وعندما قُبِل هذا الإقتراع تراجعنا عن فكرة الإستيلاء على الأماكن عديمة النفع مثل . وزارة المالية ، البلدية ، الدوائر العامة مثل النفوس والإحصاء ، وبعد أن أحصينا الدوائر عديمة النفع في بلدنا لم يبق أية دائرة ذات فائدة تستحق الهجوم عليها . فقال العميــد أبو الحجاب « إذا كنا لا نريد الإستيلاء على الدوائر الحكومية بحجة أنها عديمة النفع ، فلنتراجع عن القيام بالثورة » . فقال القائمقام بهلول : « يا أصدقاء يجب ألاّ ننسى أننا نقوم بهذه الثورة لأن دوائرنا الحكومية لا تنفع لأي شيء » وبذلك حددنا الهدف الذي ستقوم الثورة لأجله .

اتفقنا على أن يتصل الأصدقاء بي هاتفياً فور استيلائهم على الدوائر الرسمية ، وأنا بدوري سأخبر أهالي أوقريكا بنجاح الثورة عن طريق الإذاعة . وقد كلفني الأصدقاء بمهمة الحديث الإذاعي لخشونة صوتي .

وعندما قررنا التحرك قال الملازم أول ابن البوّل « لنرَ إن كــان الأمريكيون موافقين على قيام هذه الثورة . لأن احتمال نجاح أية ثورة لا يرضى عنها الأمريكيون معدوم » . فقررنا إثر ذلك تشكيل لجنةرباعية مؤلفة مني أنا شخصياً وثلاثة من الاصدقاء ، وذهبنا لمراجعــة السفير الأمــريكي .

عندما دخلنا الى السفارة شاهدنا خمسة أشخاص يخرجون من مكتب السفير ، فاعتقلناهم على الفور ، ولولا اعتقالنا لهم لقاموا بالثورة

قبلنا واستلموا الحكم . استقبلنا السفير استقبالاً لائقاً . قال صديقنا الذي يتكلم اللغة الأمريكية « يا شباب . مصيبة وقعت على رؤوسنا . لا أستطيع تذكر معنى كلمة ثورة باللغة الأمريكية . أيوجد بينكم من يعرف ؟ » . في الحقيقة ، كنت أعرف معنى كلمة ثورة باللغة الأمريكية ولكني نسيتها بسبب الإضطراب الذي أصابني ، قلنا للسفير اننا نوي القيام بشيء ما. ولكن لم نستطع شرح ما هو هذا الشيء . وحينما حاولت أن أشرح له معنى كلمة ثورة بإشارات من يدي ، فهم إشاراتي فهماً خاطئا وغضب كثيراً . المهم أننا استطعنا بعد عناء أن نشرح له مرامنا . فقال السفير : « إن نجحتم سندعمكم وإن فشلتم فإننا سنواصل دعمنا للحكومة الحالية » .

بعد ان اخذنا موافقة الأمريكان توزعنا على أعمالنا من أجل إتمام الثورة .

دخلنا الى مبنى الإذاعة ونحن نهز أيدينا الى الأمام والى الخلف لاننا لم نواجه بأي مقاومة . وبدأنا ننتظر الأخبار التي ستصلنا من الأصدقاء بواسطة الهاتف .

مرّ على موعد الإتصالات ثلاثة ساعات ولم يأتنا أي خبر فأصبنا بالقلق والإضطراب . لأننا إذا افترضنا أنهم اعتقلوا أصدقاءنا فيجب ان نعرف أنهم سيهاجمون الإذاعة ويعتقلوننا أيضاً . فقررنا بناء على ذلك ان نجيب على قوات الحكومة إن سألونا : « ماذا تفعلون هنا ؟! » بأننا نريد تقديم حفلة موسيقية ونريد أن نعزف بعض الأناشيد الوطنية. ولكننا هنا أيضاً اكتشفنا مصيبة جديدة إذ لا يوجد بيننا من يتقن عزف أية آلة موسيقية . ومع ذلك فقد بحثنا في الغرف وأحضرنا الآلات الموسيقية الموجودة فيها .

أنا ، وجدت طبلاً فأحضرته وبدات أتدرب عليه ووجد احد الأصدقاء دفاً ، وآخر لا اعرف اسمه وجد بزقاً .

قلت للعميد أبو الحجّاب :

ـ اذهبوا واستقصوا الأخبار ، ترى : هل استولى الأصدقاء على السـلطة ؟!.

مشى العميد بخطوات عسكرية وغاب في عتمة الليل ، ولم يَعُد بعد ذلك . ولما لم يأتِ منه خبر أرسلت الملازم أول ولكن الآخر لم يَعُد أيضاً . صرت أرتجف خوفاً من احتمال فشل الثورة . لقد وجدت أفضل حلّ هو الذهاب الى السلطة وإخبارها بإندلاع الثورة وبذلك اكون قد أنقذت نفسي . وأنا في هذه الدوامة قال لي آخر من بقي معي من الأصدقاء :

ـ لا شك أن الأصدقاء استولوا على الحكومة في هذه الساعة .

يجب عليك إخبار المواطنين بواسطة الإذاعة بإستيلائنا على السلطة كي لا تحصل اية تغيرات تؤدي الى حدوث الإضطراب عند السكان .

فقلـت :

ـ إن إذاعة خبر كهذا ، في غاية السهولة ، ولكن ماذا سنفعل إن تم اعتقال أصدقائنا واودعوا في السجن ، ألن يكون اعلاننا عن الثورة شيء مثير للضحك ؟

بعد قليل انقطع التيار الكهربائي ، فظننت انه قد حدث تماس في الدارات ، ولكننا فهمنا بعد ذلك أن التيار الكهربائي قد انقطع فعلاً .

نزلت الى الشارع فلم ارَ اي ضوء في المدينة ، ولم أجد اية واسطة نقل ، فاضطررت للذهاب الى مجلس الوزراء مشياً على الأقدام . وجدت هناك العميد أبو الفضال . فسألته :

ـ ماذا حدث يا أبو الفضال ؟

فأجـــاب :

ـ لقد اعتقلتهم .

فقلــت :

ـ من ؟! الملك ؟!

ـ كلا . لقد اكتشفت لجنة ثورية أخرى تحاول قلب الحكومـــة ، كانوا ينوون القيام بثورة في هذه الليلة . فاعتقلتهم قبل أن أعتقل هيئة أركان الحكومة . لأنه يتوجب علينا ألا نسمح لأحد بأن يسبقنا للقيام بالثـــورة .

فهمت فيما بعد ، من الأخبار الواردة إلينا ، أنه تم اكتشاف أربعة لجان ثورية ، غير لجنتنا ، وكلهم كانوا يحاولون القيام بالثورة في نفس الليلـــة .

قلت للعميد زهروي :

ـ لم لم تخبروني عن نجاح الثورة بواسطة الهاتف ؟!.

فقـــال :

ـ وكيف سنخبرك والهواتف معطلة ؟

ـ كان يتوجب عليكم عدم قطع كل الهواتف .

ـ نحن لم نقطعها . تعطلت في المساء . بضع قطرات من المطر أدت الى قطع الخطوط الهاتفية .

ـ ألم تستطيعوا إرسال أحدهم بالسيارة ؟!

ـ نقول لك : هطلت الأمطار ... ألا تفهم ؟ ألا تعرف أن حركة السير تتوقف في أوقريكا بشكل كلي عندما تهطل الأمطار .

ـ حسناً ، وماذا سنفعل الآن ؟ جماهير أوقريكا لم تسمع بإستلامنا للسلطة .

بسط العميد زهروي خريطة الحركة فوق الطاولة ووضع فوقها أحجار الشطرنج وخاطب أبو الفضال قائلاً :

ـ لقد شلّ تفكيري ، ولن أقوى على التفكير قبل أن ألعب قليلاً بالشطرنج ، فتفضل الى رقعة الشطرنج يا سيدي العميد .

أما بالنسبة لي ، فقد استلمت الطريق متجهاً الى دار الإذاعة من أجل إخبار الجماهير بإستلامنا للسلطة . وفي الطريق قابلت المقدم حبيبي ، كان يضع المسكين حذاءه تحت إبطه كي يستطيع السير في وحل الطريق ، عندما رآني بادر قائلاً :

ـ انظر الى هذا المنظر ، لقد أجبرونا على القيام بالثورة .

وبعد ذلك أخبرني بأنه استولى على وزارة المالية وعلى الخزينة ، غير أنه وجدها فارغة فتركها دون حراسة واستولى أيضاً على وزارتين أخريين .

وقال الفريق خيام باشا :

ـ لو كنت أعلم بأن القيام بالثورة سهل لهذا الحد لما انتظرت كل هذه السنين . بل كنت قمت بثورة مذ كنت برتبة وكيل ضابط ، ورفّعت نفسي مباشرة الى رتبة مشير .

بدأت بترديد نشيد « امن السهل خداع شعبي ؟ » مع الأصدقاء الذين التقيتهم في الطريق وذهبنا سوية الى دار الإذاعة .

بدأت أتكلم بصوتي الأجش معلنا نبأ قيام الثورة للأوفريكيين . فقال القائمقام :

ـ إنك تصرخ دون فائدة . يوجد عطل فني في محطة الإذاعة بسبب هطول المطر .

ـ حسنا . ولكن كيف سنخبر المواطنين بأننا استولينا على السلطة ؟ من غير المنطقي إخبار المواطنين فرداً فرداً .

فقال أبو الحجاب :

ـ لقد عادت الخطوط الهاتفية للعمل . لنخبر بعض الأفراد بواسطة الهاتف وهم بدورهم يخبرون الآخرين .

وعلى الفور طلب رقماً لا على التعيين . وبدأ يتكلم يجب على كل عضو من أعضاء مجلس الثورة أن يكون تحت المراقبة ولهذا فقد امسك كل منا سماعة الهاتف وبدأنا نستمع للحديث الهاتفي الذي يجريه أبو الحجاب .

قال ابو الحجاب :

ـ نحن اعضاء مجلس قيادة الثورة .

فسأله الصوت النعسان :

ـ ماذا ؟ مجلس ماذا ؟

وبعد ذلك جرت المكالمة التالية بينهما :

ـ لقد استولينا على الحكم .

ـ يا إلهي ... الله يوفقكم ... كم انتظرنا شخصاً ما ليقلب هذا النظام ويخلصنا من مصائبه ... من أنتم ؟

ـ أنا العميد أبو الحجاب من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، نريد أن نخبركم باستيلائنا على الحكم ، نرجوا أن تخبروا أصدقاءكم .

ـ من أين تتكلمون ؟

ـ من دار الإذاعة ، ... ومن أنتم ؟

ـ أنا الصدر الأعظم مختار باشا .

فقال العميد أبو الحجاب « من ن ن ... ؟ » . وسقط مغمياً عليه.

لقد حدث تماس في خطوط الهاتف فبدل أن يطلب أحد المواطنين طلب الصدر الأعظم وأخبره بقيام الثورة .

قال الملازم أول محمد :

ـ يا لسوء طالعنا ، لن يسمع أحدٌ بإستلامنا للسلطة .

فقال خيام باشا :

ـ دعك من هذا .. بعد قليل سيأتون لإعتقالنا .

فسألتهم :

ـ ولماذا لم تعتقلوا الصدر الأعظم ؟ .

فأجابوا :

ـ لأن السيارات لم تستطع السير بسبب المطر .

وبعد ذلك افترقنا وذهب كل واحد منا الى وظيفته ، ذهبت الى مكتبي في وزارة الدفاع ، وغبت بين الأوراق والملفات . وبعد برهة طلبني السيد المدير الى مكتبه وقال لي :

ـ يؤكد التقرير الذي قدمه مخبرنا السري انه لولا هطول المطر لليلة أمس لاستطاع الثوار الإستيلاء على السلطة وقلب النظام الحاكم ، هذا هو التقرير ، أريد تحقيقاً كاملاً حوله .

سألته :

ـ هل نعتقلهم ؟

فصرخ السيد المدير قائلاً :

ـ ولماذا ؟ بالعكس تماماً ، سنتصرف كما لو اننا لم نسمع بأي شيء . فقد ينجحون في المرة القادمة وينقذون البلد من مصائب هذه السلطة الحاكمة ولكن لا تنسوا تجهيز الطائرات التي سنهرب فيها .

ها قد مضى على قيامنا بالثورة خمس سنوات ، حقيقة ، يجب أن تكون قيادة البلد لنا ، لأننا نحن الذين قلبنا الحكومة القديمة واستولينا على الحكم . ولكن ما نفع استلامك للسلطة ما لم تسمع بك الجماهير .

يا لشعب أوقريكا المسكين ، إنه يعتقد بأن الحكومة التي تحكمه حقيقية ، ولا يعرف بأنها مزيفة ، لأن هذه السلطة قد قلبت منذ خمس سنوات .

وصيتي الأخيرة لكل الذين يريدون القيام بالثورة في أوقريكا ، أن يختاروا ليلة غير ماطرة وأن يخبروا الحكومة بشكل سري عن عزمهم على القيام بالثورة .

لــن ننتخب عمــر آغــا

طرق باب الدار في ساعة متأخرة من الليل ، لا أعتقد بأني كنت سأستيقظ وقتئذٍ لو لم توقظني زوجتي ، لأنني كنت متعباً جداً . فقد ذهبت في الصباح الباكر الى الجبل لأحتطب وعدت في المساء كنت متعباً فنمت كالميت الذي توارى تحت التراب ، فلو ضرب المدفع مقابل أذني لن أسمعه أو أشعر بوجوده .

فقرت وقلت :

ـ مـن هذا ؟

فقالت زوجتي

ولك يا رجال هل مت ؟ إنني اوخزك منذ الصباح ولا تستيقظ ، انهض وانظر من يطرق الباب .

فقلت بصوت كسول وانا أمد رأسي من النافذة :

ـ من هنـاك ؟

فسمعت صوت سيد الأعرج يقول :

ـ نحن ... افتح يا أخي افتح .

عندما وصلت الى الباب رأيت ثمانية من رجال القرية قد جمعوا انفسهم واتوا الى بيتي .

ـ تفضلوا ... ماذا حدث في هذا الوقت يا اخوان ؟

قال سيد الأعرج :

ـ لا نستطيع الدخول . اردنا إعلامك فقط . لقد اجتمعنا هذه الليلة . وقررنا بالإجماع بالا ندلي بأصواتنا لصالح عمر آغا في الانتخاب مختاراً للضيعة . ماذا تقول حول هذا الموضوع ؟

قلت :

ـ لا إله إلا الله ولك الم نجتمع في الامس وتوصلنا الى قرار مشترك حول هذا الموضوع ؟

ـ هذا صحيح . ولكننا احببنا ان نذكرك كي لا تنسى .

ـ الم تستطع الانتظار حتى الصباح يا سيد الأعرج ؟

ـ وهل يؤجل أمر كهذا حتى الصباح ؟ فقد يأتي أحد رجال عمر آغا ويجعلك تتراجع عن قرارك .

ـ وهل بقي في هذه القرية رجل لعمر آغا يأتي إلي ؟ الم تجتمع القرية بأكملها ضده ؟ لقد أصبح غريباً ووحيداً . هيا ادخلوا واستريحوا قليلاً . . .

ـ يجب ان نمر على بيوت اخرى .

قالوا هذه الكلمات وانصرفوا .

لا نعرف هذا الرجل الذي يدعى عمر آغا إلا مختاراً لهذه القرية، ولا احد إلا الله ونحن يدري بما قاسيناه منه . ولهذا فقد قررنا شباناً وشيباً :

ـ نموت ولا ننتخب عمر آغا .

كان هذا حديث الساعة في كل أنحاء القرية . في البيت وفي المقهى في الصباح وفي المساء نتحدث ونتناقش ونجدد القرار :

ــ لن ننتخب هذا النذل عمر آغا .

اتفقنا أن ننتخب ابن الفراء نوري افندي ، لانه رجل خفيف الظل تدخل محبته الى القلب بسرعة وحديثه رائع جداً ، إنه رجل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى متعلم ويعتبر من اكفأ موظفي النفوس في المنطقة . والده متوفي وقد أتى السنة الماضية الى القرية كي يصبح صاحب اراض واطيان ومواشي ، بإختصار حسب كل المقاييس المعروفة لا يمكن أن نجد شخصاً أهل لمنصب المختار افضل منه .

كان نوري افندي كلما رأى ثلاثة أو اربعة رجال في الجامع أو في الساحة أو في المقهى يتكلم قائلاً :

ــ ايها المواطنون الكرام يا أبناء بلدي الأعزاء ، سأطبق الديمقراطية في قريتنا ... كان العسل يسيل مع كل كلمة تخرج من فمه ، وكانت خطاباته أشبه ما تكون بتلك التي نسمعها من المذياع ، وأما عمر آغا فقد كان رجلاً لا يحرك ساكناً ، حتى عندما نتكلم أمامه فقد كان الكلام يصل الى أذنيه ومع ذلك لا يتكلم .

كنا نجتمع كل يوم ونقرر ، لن ننتخب عمر آغا ، وعندما نذهب الى بيوتنا نكتشف أن هذه الاجتماعات لا تكفي فنذهب الى البيوت في أوقات متأخرة من الليل لنبلغ سكانها نفس القرار ، لو أنني لم أنم تلك الليلة لذهبت لأخبرك نفس القرار وإذا لم تنم أنت تذهب الى بيتي . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى أنا شخصياً أشفق كثيراً على خطابات المسكين ابن الفراء نوري أفندي ، يا سيدي أقسم لك بأن قرية كهذه لا تصلح لخطاباته ، لا أشك مطلقاً بأنه يستطيع قلب حكومة بأكملها بخطاب واحد إذا ما ذهب الى انقرة ، المهم أننا أقسمنا بآبائنا وأمهاتنا وبأطفالنا وبزوجاتنا ، وتعاهدنا على أن نموت ولا ننتخب عمر آغا .

قبل الانتخابات بيومين طرق باب بيتي في ساعة متأخرة من الليل ظننت ان سيد الأعرج قد عاد من جديد . فمددت رأسي من النافذة وقلت :

ـ فهمت يا بني . لن تنتخب الخنزير عمر اغا .

فسمعت صوتا ينادي :

عمي خضر . افتح الباب . افتح . . . .

يا إلهي إن هذا الصوت لرجل آخر . ففتحت الباب فوجدت ابن أخ عمر اغا .

لقد ارسل عمي عمر سلاما خاصا لك .

فقلت :

ـ إني طفل . . .

فقال الطفل :

ـ قال لي عمي عمر اذهب الى عمك خضر وقل له إذا كان يريد أن يكسب الدعوى التي بينه وبين غوجور موستوفا لصالحه . فليذهب غداً معي الى المنطقة لأنني وجدت له محامياً كفء ، وقل له ألا يفكر بالنقود .

ـ عندما سمعت عبارات « دعوى ، غوجور موستوفا ، المحامي » شردت بعيداً .

غوجور موستوفا من الد اعدائي . يا أخي إن هذا الرجل خالي من الدين والأخلاق إنه يريد ربط حماره عند حدود حقلنا ويطعمه من أزهار الرمان . وقد تكرر هذا العمل عدة مرات . ولا يكفيه ذلك بل يبعث والده

الى مخزننا ليسرق الطحين ، وحتى إن امسكناه فلن نستطيع فعل اي شيء معه لأنه قوي جداً . ولا أحد في القرية يقدم المساعدة لجاره ... آخ لو استطيع أن أتخلص من غوجور موستوفا بمساعدة عمر آغا .

حسن ، ولكن إذا ذهبت غداً الى بيت النذل عمر آغا لا اشك بأن الرجال سيبصقون على وجهي .

قال الطفل كأنه شعر بما افكر به .

ــ قال عمي عمر ، لينتظرني غداً قبل الظهر بجانب جدار البئر القريبة من المقبرة .

فقلت للطفــل :

ــ سلم لي على عمك عمر آغــا ...

شرحت لزوجتي ما جرى بيني وبين هذا الطفل فقالت :

ــ وهل تؤجل عملاً كهذا ، غداً صباحاً ، إذهب وخذ حقنا مــن غوجــور مستوفا .

لم استطع النوم في تلك الليلة حتى الصباح ، مع بزوغ نور النهار مشيت على الطريق عدة خطوات فرايت كورمورسال قادم وهو يحمــل والدته على نقالة ، سلمت عليه قائلاً :

ــ الى اين يا مورسال ؟

ــ الى البلــدة .

ــ وماذا ستعمل هناك ؟

ـ سآخذ امي الى الطبيب . وانت ؟

ـ انا ايضاً ذاهب الى البلده .

ـ ماذا ستعمل هناك ؟

بماذا يرد الإنسان على تساؤلات هـذا السافل الذي يسأل وكأنه القاضـي ؟

ـ رفعت دعوى ضد غوجور موستوفا . وسأوكل محامي .

وما ان مشينا قليلاً حتى رأينا بكر اغا يركب حماره ، وبجانبـه تسير زوجته ويمشي ولده خلف الحمار . ات .

ـ خير إنشاء الله . الى اين ذاهب في هذا الوقت المبكر يا بكر اغا؟

ـ الى البلـدة .

ـ ماذا ستعمل هناك ؟

منذ شهرين اخذت زوجتي الى الدكتور فكتب لها على دواء ولكننا لم نستطع شراؤه لغلاء ثمنه ، الآن سأذهب لشرائه .

ـ والى اين تأخذ زوجتك ؟

ـ لقد تشاجرت البارحـه مع زوجة حنفه وقـد رفعت دعـوى ضـدها .

ـ والطفـل ؟

ـ إنه يخرج ديداناً مع برازه ، سأعرضه على الطبيب ، وانتم

نحن أيضاً شرحنا له وضعنا ، وصلنا الى البئر حوالي خمسة عشر او عشرين شخصاً وكلهم إما مدّعي أو مدّعى عليه . إذ لا يوجد في قريتنا أي رجل لم يتشاجر مع جاره أو مع قريبه وعندما وصلنا الى البئر وجدنا سكان القرية مجتمعين هناك حتى سيد الأعرج كان هناك .

سألته :

ـ ما هي اخبارك يا سيد ؟

فقال :

ـ سأوكل محامي ، لقد رفعت دعوى ضد شوكت .

امر هذه القرية محيّر فعلاً ، هل أجّل الجميع امراضهم ودعاويهم الى هذا اليوم ؟

حتى غوجور موستوفا كانت سيجارته بفمه وكان واقفاً بجانب البئر . فقلت لسيد :

ـ ماذا يفعل هذا القواد هنا ؟

قال :

ـ إنه يقول انه مدّعي عليك . ويريد أن يوكل محامي ضدك .

كنا صامتين مطاطئين رؤوسنا حين جاء عمر آغا . يا إلهي كيف سأذهب مع عمر آغا امام أعين ابناء قريتي ؟

اقترب عمر آغا منا وقال :

ـ السلام عليكم يا أغاوات .

قلنا بعدم اكتراث :

ــ وعليكم السلام .

ــ هل العدد كامل ؟ الجميع موجودين ؟

ــ نعـم .

صعد على جدار البير ، نظر إلينا وقال :

ــ العدد غير كامل ، انتظروا قليلا .

انتظرنا حوالي خمس دقائق او اقل وإذ بابن الفراء نوري افندي قادم من بعيد ، سلم علينا .

قال له عمر آغا دون أن ينظر الى وجهه .

ــ هل اتيـت ؟

ــ نعم أتيت .

استدار نحونا وقال :

ــ هيا اتبعوني . . .

وتبعنا هذا الخنزير المسمى عمر آغا ، كنا حوالي الثلاثين او اربعين شخصا بين نساء ورجال واطفال وحمير ، منهم من تحمل طفلها ومنهم من يحمل مريضه على كتفه .

قلت لنوري افندي الذي يمشي بجانبي :

ــ الى اين نحن ذاهبون يا سيدي ؟

فقال :

انا ذاهب لأنه لدي عمل في دوائر الدولة .

شيء عجيب فعلا ، كل هؤلاء الثرثارين موجودين ومع ذلك لا يوجد أي صوت خارج منهم . دخلنا الى البلدة مثل عربة يجرها حمار وكان عمر آغا في المقدمة . توقف عمر آغا رفع انفه نحو السماء واخرج مسبحته من جيبه وتابع سيره أمامنا .

وعندما وصلنا الى الجامع قال :

ـ انتم انتظروني في الساحة ، بكر آغا تعال ...

ثم قال لي « تعال » ذهبنا ثلاثتنا وأما البقية فقد انتظروا في الساحة . دخل عمر آغا الى مكتب المحامي بصري بيك ودخلنا وراءه ، وقفت انا وبكر آغا مشبكين أيدينا أمام بطوننا وبدانا نستمع للحديث الذي يجري ، قال عمر آغا :

ـ السلام عليكم .

وجلس على أول كرسي ، وتابع :

ـ يا بصري بيك إننا نقاسي كثيراً من رجال الاحزاب المعارضة .

فقال بصري بيك :

ـ قريباً إنشاء الله ، سنضع اللجام على ذقونهم ونقطع اصواتهم وانفاسهم .

ثم تابع متسائلا :

ـ ما هو موقف حزبنا في قريتكم ؟

ـ ما معنى هذا ؟ وهل يستطيع اهل قريتي انتخاب احد آخر ما دمت انا موجوداً بينهم ؟

ـ شكراً .

ـ عندما أكون موجوداً ، دع كل الأمور لي ولا تفكر بأي شيء .

فسأله بصري بيك :

ـ من اي قرية انت ؟

ـ من قرية يان إي ، سكان القرية جميعهم من حزبنا .

وبعد ذلك ناقشوا أمور الحزب ، الساعات تمر بسرعة ، هل اتينا الى هنا من اجل الثرثرة ، همس بكر آغا بأذني قائلا :

ـ لقد نسي الدعوى ، إنه يناقش أمور الحزب .

لفت نظري ورقة ملصقة على الجدار مكتوب عليها « إجرة المحامي ٢٠ ليرة » تحدثوا عن كل شيء وبعد ذلك قال عمر آغا :

ـ اسمح لنا ، إننا نريد الانصراف .

ـ فقال المحامي :

ـ ارجوا ان تعملوا بجد ونشاط .

ـ لا تهتم باي شيء ما دمت موجوداً .

نظر الى وجه بكر آغا وقال وكأنه تذكر شيئاً مهماً :

ـ آ آ ... صحيح ... قبل ان انسى ، هذا الرجل الفقير ، إنه من اعضاء حزبنا النشيطين ، يريد ان يرفع دعوى ضد احد المعارضين الانذال لانه يضايقه كثيراً ولكنه فقير جداً ، ولا يملك نقوداً .

ـ لا تهتم لأمره ، إن من شيمنا استلام قضايا أعضاء حزبنا .

ـ شكراً لك ، ولكنه لا يملك نقوداً تغطي تكاليف المحاماة .

ضحك بصري بيك وقال :

ـ اسمح لي بهذه الخدمة ... انا سأدفع النقود .

استدار عمر آغا نحو بكر وقال :

ـ الله الموفق ، ها هو الأستاذ المحامي سينظر في قضيتك ، ابق هنا

تركه هناك وخرج ، أنا لم أفهم أي شيء ، فكما أعلم ويعلم الجميع أن بكر آغا لا يتعاطى السياسة ولا يفهم بالأحزاب .

وعندما خرجنا قال لي عمر آغا :

ـ اركض ونادي السيد الأعرج ، ليأت الي حالا .

ناديت السيد الأعرج ، اخذنا هذه المرة الى مكتب محامي من الأحزاب المعارضة ، سلم وجلس على أول كرسي في المكتب ، وأما نحن فقد شبكنا أصابعنا أمام بطوننا وبدأنا نستمع . قال عمر آغا :

ـ إننا نقاسي كثيراً من السلطة الحاكمة يا استاذ . لقد شربَتْ دماء الشعب ، لا يمكن ان يمر على البلاد أنذل من هذا الحزب .

وكان المحامي ينتظر كلاماً كهذا فبدأ نقاشاً حامياً حول الحزب الحاكم ، قال المحامي :

ـ ما هو وضع حزبنا في قريتكم ؟

ـ قوي جداً ، إن جميع سكان قريتنا ضد الحزب الحاكم ، ولتكن واثقاً بأن حزبنا سينجح بالانتخابات الحالية ما دمت موجوداً ، يكفي ما قاسيناه .

فقال المحامي :

ـ عندما نستلم السلطة سنقلع السنتهم من جذورها .

وبعد ان ناقشوا أمور الحزب وتحدثوا كثيراً هم عمر آغا بالنهوض قائـلا :

ـ لا يمل من الجلوس معك ، اسمح لنا ... وفجاة وكأنه تذكر شيئاً مهماً قال :

ـ صحيح ... كنت سأنسى . اشار الى سيد الأعرج وتابع قائلا :

ـ هذا الرجل الفقير ، من رجال حزبنا الصادقين ، لقد قاسى كثيراً بسبب احد رجال الحزب الحاكم ، ويريد الآن أن يرفع دعوى ضده ، ولكنه فقير ولا يملك ما يسد به رمقه .

فقال المحامي :

ـ سننظر بأمره ، إنه عملنا .

ـ لكنه لا يستطيع ان يدفع تكاليف المحاماة .

ـ دعك من ذلك .

فقال عمر آغا لسيد الأعرج :

ـ لقد سارت امورك على ما يرام ، ادع للاستاذ والعمل بنشاط من اجل حزبنا ابق هنا كي ينظر بوضعك .

وعندما خرجنا قال لي :

ـ نادي لمرتضى وتعال :

ناديت له وحضرت ،هذه المرة ذهبنا الى عيادة طبيب الأسنان ، وكان ضرس مرتضى يؤلمه كثيراً . لقد ورم خده حتى أصبح كالطبل .

كان طبيب الأسنان أحد المرشحين عن حزب من أحزاب المعارضة وبدأا يقذفان الشتائم على الحزب الآخر ...

تركنا مرتضى هناك إذ أن الطبيب تعهد بقلع ضرسه ومعالجته دون أي مقابل . أخذنا والدة كورمورسال الى الطبيب الذي كان من أعضاء الحزب الحاكم اتحد مع عمر آغا وبدأا بقذف الشتائم على أحزاب المعارضة وبعد ساعات فتح موضوع علاج والدة كورمورسال فقال الدكتور :

ـ على راسي ، ولكن لا تتحدث عن النقود أبداً .

وهكذا سارت كل الأمور ، وأخذ العلاج من الصيدلية مجاناً ، وأنا ما زلت قلقاً بخصوص الدعوى التي سأرفعها ضد غوجور موستوفا .

قال :

ـ نادي غوجور موستوفا .

أخذني وعدوّي الى مكتب محامي آخر . ولعب نفس اللعبة ، وقبل أن يخرج أشار الى غوجور موستوفا وقال :

ـ هذا الصديق من أنصارنا ، إنه رجل فقير وغريب ، لقد وقعت بينه وبين أحد المعارضين الأنذال مشكلة كبيرة .

ما هذا يا... إنه يصفني بالنذالة هكذا، أمامي ودون أي خجل...

تركنا غوجور موستوفا هناك ودخلنا الى مكتب محامي آخر ، وهنا أشار نحوي قائلاً :

ـ إنه من أعضاء حزبنا الفعالين ، ولكنه قاسى كثيراً من أحد أعضاء الحزب الحاكم الخنازير .

وبإختصار ، تركني هناك ، أخرج المحامي النقود من جيبه وعمل سند وكالة ، وقدم لي الطعام .

رجعنا الى القرية . وفي اليوم التالي جرت الانتخابات .

ذهبنا الى الصناديق وانتخب عمر آغا كل رجل قال :

ـ لن ننتخب عمر آغا .

لقد فاز عمر آغا في الانتخابات ، وربح نوري افندي صوتاً واحداً فقط ، اعتقدنا انه صوت نوري افندي ذاته .

ولكن ابن الفراء نوري افندي قال :

ـ اقسم بالله اني أعطيت صوتي لعمر آغا .

فقال عمر آغا :

ـ امان يا ربي ... أنا من أعطى صوته لنوري افندي ... الم نتفق نحن أهل القرية على ان نعطي أصواتنا لنوري أفندي ... لقد وجدت ان الخروج عن رأي الجماعة عمل غير لائق ... ولهذا اعطيت صوتي لنوري أفندي .

لقد انتخبنا عمر آغا مختاراً على قريتنا ونحن ننادي « لن ننتخبه... لن ننتخبه ... » وفي النهاية لم يثبت على موقفه أي رجل في قريتنا سوى عمر آغا .

البيانو الذي نعامله كالعروس

ـ قـال :

أنا أحب الأتراك جداً .

تعتبر هذه العبارة من أكثـر العبارات التي تسعد الأتراك الذين يعيشون في الخارج خصوصاً عندما تخرج من فم أحد المشاهير الأجانب. وبالأخص عندما تخرج من فم عازف البيانو الشهير (جوليو كاتشين) الذي يعتبر الأشهر في العالم في هذا المضمار .

تكاد تطير فرحاً ، يا له من رجل رائع ، كم أود حضنه وتقبيله على وجنتيه ما دام يحبنا جداً ، فهل سيقبل إذا ما دعيناه الى استنبول من أجل تقديم حفلة موسيقية يقول سكرتيره :

ـ لديه أعمال كثيرة خلال هذا الشهر فهو سيسجل اسطوانة في أوركسترا الفلارموني في اسرائيل ولكن تحدثوا معه لعله يقبل .

طلبنا منه فقال :

ـ أتشرف بقبول دعوتكم ، سألغي كل مواعيدي من أجل تقديم حفلة موسيقية في استانبول ، فأنا أحب الأتراك كثيراً .

كدنا نطير فرحاً ، كلفني الأصدقاء بتنظيم الاحتفال وحالما وصلت الى استانبول بوساطة الطائرة بدأت بالعمل من أجل التحضير للحفلة فلم أجد مكاناً في دارين للسينما المخصصة لمثل هذه الحفلات قال صاحب إحداها أنـه سيقدم فيلماً محلياً في الوقت الـذي ستقام فيه الحفلة والآخر لا يسمح إلا بتقديم الحفلات التي ينظمها بنفسه .

اتفقت مع سينما اخرى مع انها لا تليـق بمثل هذه الحفلة وفور عقد الاتفاق طبعت الاعلانات ولصقت على جدران الشوارع العامة .

ولكن الهمّ الأكبر كان بسبب البيانو ، إذ أنني لم أجد سوى بيانو واحد يليق بمثل هذه الحفلة في بلد مثل استانبول يفوق عدد سكانه الميلوني نسمة . وهذا البيانو موجود في معهد الموسيقا وبناءً عليه فكرت بأنه من المناسب أن أقابل المدير شخصياً واتكلم معه .

وبعد التعرف على المدير ، اكتشفت انه كان شرطياً سابقاً أما الآن فإنه يدير المعهد الموسيقي ويعمل بنفس الوقت مفتشاً في البلدية .

سألت الذي أعطاني هذه المعلومات عن علاقة سلك الشرطة بالموسيقا فأجابني قائلاً :

ــ ألا تعلم بأنهم منـذ زمن بعيـد يسمعون المواطنين على الأغاني الأوبرالية في مخافر الشرطة .

عندما كنت أذهب لمقابلة المدير في المعهد الموسيقي كانوا يقولون أنه في البلدية وعندما كنت أذهب الى البلدية يقولون أنه في المعهد ومن يومها عرفت أنه من الصعب مقابلة شخصاً موظفاً في مكانين وأما الشخص الموظف بثلاث وظائف فإنه يعتبر من المفقودين .

انظروا الى سوء طالعي إذ لم يصدف أي مرة أن ذهبت الى البلدية ووجدته أو صادفني هو في المعهد فلم أجده في أي مكان وعندما التقيت به بعد ستة أيام علمت بما حدث ، فعندما كنت أذهب الى البلدية يكون هو في المعهد وعندما أذهب الى المعهد يكون هو في البلدية وعندما التقيت به أيقنت أنني رأيته في مكان ما وبعـد تفكير عميق تذكرت أنني رأيته في شارع ما .

وبعد أن تحادثنا بمختلف الأحاديث قلت له .

ـ يا سيدي انت تعرف جوليو كاتش .

ـ مـن ؟

ـ كاتشين ؟

ـ من هذا ؟

ـ الشهير كاتشن .

ـ المهم . . . لم أتذكر الرجل، هل هو الذي أرسلك وعليكم السلام . . .

ـ عازف البيانو الشهير .

ـ آ . . آ . . . هكذا إذاً ؟ جيد . . . جميل .

فقلت له أنه يوجد بيانو واحد من ماركة « سيث وي » يصلح لهذه الحفلة وهذا البيانو موجوداً لديكم ، وقلت انني أريد هذا البيانو من أجل الحفل وشرحت له ما استطعت عن هذه الحفلة وأهدافها : الفن ، الوطن ، الشعب . . . .

عندما كنت اشرح له : في البداية تماوجت عيناه وتماوجت وبعد ذلك رجفت وعندما أدركت أنه ارتعش من تأثير موسيقى صوتي الغير متجانسة صرت أتحدث بصوت مرتجف وبعد أن دقق في نقطة التقاء الجدارين مع السقف لمدة زمنية . نقر بأصابعه على الطاولة وقال :

ـ غير ممكن لأن هذا البيانو هدية من فرقة « الروكفين الأمريكية » الى المعهد الموسيقي في استانبول وقد قـدموه بشرط الا يعزف عليه إلا في حفلات المعهد .

ـ وهل سيسترجعونه إن سمعوا ؟

ـ هذا شرطهم ، حتى اننا نحل هذه المشكلة عندما نضطر لاعطاء البيانو الى اوركسترا المدينة بوضع فاصلة . فسألت بشيء من الدهشة :

ـ كيف ؟ فاصلة ؟

قـال :

ـ نعم ... فاصلة ، عندما نعطي البيانو الى اوركسترا المدينةنكتب على وصل التسليم « معهـد الموسيقى في استانبول فاصلة اوركسترا المدينة » فلو لم نضع الفاصلة لكنا افسدنا بنود الاتفاق .

ـ الا يمكن أن نحل موضوعنا بوضع فاصلة ؟

ـ لا يمكن أن توضع فاصلة لأنكم من جهة لستم من هيئة رسمية ، ومن جهة أخرى غير تابعين للبلدية وبهذا تكون مسؤولين عن إفسـاد الشروط .

لم يبق سوى أيام قليلة على موعـد الحفل ، وإذا ما اتى كاتشن فسيكون موقفنا صعباً للغاية .

ومن قلة حيلتي ذهبت الى مكتب الاخبار الأمريكي وطلبت منهم أن يسمحوا للمعهد الموسيقي في استانبول بإعطائنا البيانو الذي قدّم هدية من الروكفين من أجل إقامة حفلة موسيقية . ضحك الأمريكي وقال :

ـ وهل تقدّم هدية بشروط . ثم اتصل بالمعهد الموسيقي وطلب منه ان يعطينا البيانو وعندما ذهبت الى المعهد كان المدير في البلدية وكان هناك معاون المدير وبعد أن سمع كلامي قال :

ـ لا يمكن إننا نخبىء هذا البيانو كالعروس .

مثل العروس ؟ رجعت خطوتين الى الخلف وعندما اقتربت من الباب نظرت الى عين الرجل .

فصار يردد قائلاً :

ـ نخبئه كالعروس ...

اصبحت المسألة عجيبة للغاية فالعروس لا تخبأ .

قلـت :

ـ حسن يا سيدي ماذا تفعلون بهذا البيانو ؟

قـال :

ـ ينتقل هذا البيانو من مكانـه مرتين في السنة ، المرة الاولى في الخريف في بداية الموسم حيث ينقل الى السينما التي سيقام الاحتفال فيها والمرة الثانية عندما ينتهي الموسم في الربيع إذ يعود الى هنا ويغلق .

سـألته :

ـ ولمـاذا ؟

ـ لأن البيانو اثناء تَنَقّله يتعطل ، او ينكسر في مكان ما .

نعم ، ففي إحدى المرات اخذته جمعية الحرب من اجل إقامة باليه وقد عزفت عليه معزوفات هادئة خوفاً عليه ، أما الآن فالذي سيعزف عليه عازف شهير ، سيضرب عليه بكل قوته فقد تتعطل مفاتيحه او تنزع ارجلـه .

ومن دون أن أدري خرج من فمي صوت ضحكة / إه / فوضعت يدي على فمي وتظاهرت انني أسعل .

كرر قائلاً :

ـ إننا نخبئه كالعروس .

ولأنه عروس فقد كان من الطبيعي ان تدخل الغيرة في الموضوع .

قــال :

ـ ولكن استطيع أن أقدم لك مساعدة . فسألته بفرح :

ـ شكراً لك . وكيف ستساعدني ؟

ـ يوجد عدة آلات بيانو في المعهد الموسيقي تستعمل من اجل التدريس ولكن من ماركات مختلفة نعطيكم واحدة منها .

ذهبت بصحبة ثلاثة اشخاص لرؤية آلات البيانو التي سنأخذ واحدة منها وكانت جميع الآلات مكسورة ومعطلة وأفضل بيانو رأيناه كان من ماركة / ماشستاين / عندما ضربنا على مفاتيحه خرجت موسيقا لم توجد نوطتها حتى الآن في عالم الموسيقا . يوجد في البيانو فقط علامة « ري » جيدة تضغط عليها فيخرج لك صوتاً يعوي « دووو » قــال معــاون المدير :

ـ حسناً ، سنعطيك هذا البيانو ، أصلحه واعزف عليه .

إن تحويل هذه الآلة التي يدعونها بيانو الى سيارة اســهل من إصلاحها واستعمالها كبيانو للعزف . والأصح يمكن أن تخرج منهـا سيارة فورد من الماركات القديمة بجهد اقل وبمصاريف اقل ايضاً .

ومن قلة الحيلة ومــن ترددي الى هنا وهناك دون فائدة لم اجد افضل من الذهاب الى مكتب فنون المدينة التابعة لأحد معاوني رئيس

البلدية ، عرفت انه كان في السلك العسكري قبل استلام وظيفته هنا كمعاون رئيس بلدية مسؤولاً عـن الشؤون الفنية في المدينة . بدأت حديثي قائلاً :

ـ يا سيدي ، انتم العساكر تفهمون بشؤون الفن .

قـال :

ـ نعم ، كنت اعزف الباص في فرقة المراسيم .

شرحت له كل ما أريده بشكل مفصل .

فقـال :

ـ اكتب طلباً وقدمه لنا .

خرجت وكتبت الطلب وقدمته فوراً .

ـ عجباً كيف ستسير الأمور لقد اقترب موعد الحفل كثيراً .

ـ نحن سنحول طلبكم الى هيئة البوليفونيك الفنية والهيئة تقرر..
عجبا وهل يعطونا البيانو .

ـ عن نفسي لن استخدم الفيتو ضدكم امـا الآخرين فلا اعرف موقفهم .

جاء قرار الهيئة :

ـ لا يعطى البيانو .

ذهبت الى معاون رئيس البلدية وبعد أن قلت كل ما يجب ان يقال وتوسلت إليه بما فيه الكفاية . قلت :

ـ يا سيدي ، هذه خدمة تهم المصلحة العامة .

قلّب الملفات والأوراق المكدسة فوق مكتبه بأصابعه وقال :

ـ انظر . أنا هنا أخدم المصلحة العامة الى أقصى حد .

ـ يا سيدي لم يبق وقت ، لقد تكرّم علينا عازف البيانو وقبل دعوتنا ، إذا أتى فسوف يكون موقفنا صعباً وسيقل اعتبارنا وقيمتنا في الخارج ، ستفسد سمعتنا ويقولون : بلد كبير مثل استانبول لا يوجد فيها بيانو واحد من أجل إقامة حفلة موسيقية .

ـ كيف سنعطيكم بيانو خاص للبلدية ، وأنتم لا تشكلون جمعية أو حتى أي هيئة عامة ، أيعطى البيانو للقطاع الخاص ؟

فشرحت له : السمعة ، الوطن ، الفن .

ـ افهم ، افهم ، افهم إنك رجل مثالي .

نظرت الى عينيه بشيء من الأمل .

فقــال :

ـ أنا أعرف كل هذا ولكن لا يمكن أن أشرحه للآخرين .

وبدأت من جديد الشعب ، الوطن ...

قــال :

ـ إنكم تشغلون مركزه .

ولأنني لم افهم . سألته :

ـ واي مركز .

ضرب على زجاج الطاولة بيده وقال :

ـ المركز ـ المركز .

ركضت من جديد الى مدير المعهد الموسيقي

ـ يا سيد ، ستسوء سمعتنا في العالم ، لقد علقنا الدعايات واعلنا عن الحفل .

ـ وهل اخذتم رأيي ؟ لو لم تدعوه .

ـ ولكننا دعوناه .

ـ لا يمكن أن نسمح لاحد بالعزف على هذا البيانو إلا إذا كان من خريجي المعهد الموسيقي في ميونخ .

ـ ولكنه كاتشين .

ـ انا لا افهم كاتشين ، ماتشين الغوا الحفل .

ـ سمع وزير الداخلية بالموضوع . اتصل من أنقره هاتفياً برئيس بلدية استنبول ومن جديد خرج القرار عن هيئة البوليفونيك الفنية : لا يسمح لوزير الداخلية بالتدخل بشؤون الفن .

في هذه الاثناء جاء كاتشين بالطائرة ، شرحنا له الموضوع بهدوء فقال مبتسماً :

ـ لا نستطيع إلغاء الحفل بعد أن أعلنا عنه وبما انني قدمت إلى استانبول فلا ضير من العزف على بيانو آخر .

سمع والي استانبول بما حدث ، وللحقيقة نقول انه حاول كثيراً ولكن بعد ان رفض المعهد الموسيقي اخراج عروسه قال الوالي :

« يوجد في مضافة الوالي بيانو ، جربوه »

ذهبنا إلى مضافة الوالي مع كاتشين وبعد ان نظر كاتش الى البيانو قال :

ـ بيانو جميل ولكنه لايعزف .

ـ ولا يوجد اي وقت لاصلاح البيانو فالحفل سيقام في يوم غد .

وجدنا عند مدرب العزف على البيانو آلتي بيانو ، فذهبنا ورأيناه، دلّ كاتشين على إحدى الآلتين وقال :

ـ ربما تكون جيدة .

كان المدرب برفيسوراً رائعاً . لم يأخذ نقوداً ، فحملنا البيانو إلى السينما التي سيقام فيها . صفق كاتشن في صالة السينما التي سيقام فيها . صفق كاتشن في صالة السينما الفارغة ليقيس مدى الصوت وقال:

ـ سيء جداً ولكن من العيب الغاء الحفل . إنني متعب جداً يجب ان اذهب إلى الفندق لأرتاح قليلاً .

اخذناه إلى الفندق ولكنه لم يستطع النوم علماً انه اخذ قرص منوم ، ولأن معاملة الدخول والعملة غير مكتملة فقد حضر إلى الفندق الكاتب العدلي وموظف المالية .

في اليوم التالي ذهبنا الى صالة السينما التي سيقام الحفل فيها فقال كاتشن :

ـ يجب أن أعمل بروفه .

غير ممكن لأن السينما كانت تعرض فيلماً وبعد انتهاء عرض الفيلم دخل مدعووا الحفل إلى الصالة قال ضابط الدوزان :

ـ لم أستطع أن أعيّر البيانو ، وذلك لضيق الوقت .

وفي أثناء الابتداء بالعرض علمت بأن الستائر كانت معطلة أيضاً ، ففتحت الستائر بيدي .

افتتح كاتشن الحفل بكلمات موجزة قائلاً :

ـ مع الأسف لم أستطع تأمين بيانو كبير يليق بحفلة كهذه ومعذلك اريد أن أشكركم لأنكم لم تحرموني من شرف العزف أمامكم وإن كان البيانو الذي سنعز عليه بنصف عمر .

وبدأ كاتشن بعزف مقطوعة من /ليست/ صار كاتشن المعروف بأنه أكثر من يتقن عزف هذه المقطوعة عالمياً ، صار يرتجف لأنه كانت تسمع ضربات كضربات المطرقة تخرج من البيانو وأصبحت تخرج من البيانو أصواتاً تشبه أصوات الفيتار وبدأ الغضب على كاتشن . أصبحت تسمع في الصالة أصواتاً أشبه ماتكون بضربات جنزير الترومواي عندما يخرج عن سكته ويسير على الرصيف وفي هذه الأثناء بدات أوتار البيانو بالاستطالة نحو الأسفل فصار كاتشن يجمعها بإحدى رجليه .

من المعروف أن مقطوعة / ليست / هذه تنتهي بصوت هادىء للغاية ولكنها انتهت هذه المرة كصوت سعال منظف للقصبات لرجل مصاب بالزكام ، وعندما انهى كاتشن معزوفته ضرب بأصابعه العشرة على البيانو وانتصب على رجليه والعرق يتصبب من جبينه وبدأ يتكلم بالانكليزية .

ـ سيداتي سادتي ...

ترون التعذيب الذي قاسيته لكي أنهي هذه الحفلة على خير ، وعلى اعتبار ان جمعيات حماية الحيوان موجودة في كل مكان في هذه الدنيا فلماذا لا تؤسس جمعية لحماية الفنانين في بلدكم .

حتى في وسط الصحراء يستطيع الإنسان أن يؤمن بيانو صالحاً لعزف مقطوعة موسيقية ولهذا أتمنى ان يتواجد في مدينتكم بيانو صالحاً لتقديم حفلة عالمية .

وانتهت الحفلة

الصراع بين ذيل الجدي والبوصله

الى الآن لم تحل قضية من كان علـى صواب أهو قائـد الجيش الخامس حافظ يونس باشا أم رئيس الأركان الحربية فون غولف .

منذ نصف قرن والمؤرخون يبحثون ويناقشون هذه القضية ومع ذلك لم تعرف الحقيقة . من المعلوم بالنسبة للمؤرخين أن القضية بدأت عندما ناقشــوا مسألة أيهما أصح في تحديد الاتجـاه ذيل الجـدي أم البوصــلة .

حافظ يونس باشا يرى أن ذيل الجدي افضــل مـن البوصلة في تحديد الاتجاه أما سبب استعمال البوصلة أكثر من ذيل الجدي فهو أحد الأخطاء التي ارتكبها علماء الغرب . ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً .

فالعلماء الغربيون كعادتهم أخرجوا وثائق لا اساس لها من الصحة منذ عهد الصليب عن الشعور بالحقد والانتقام وألم الذيل وقـد قدموا محاولات فاشلة لكي ينصروا فكرة فون غولف ولكن لم ولـن ينجحوا ، الآن يجب أن نعرض هذه المسألة بموقف محايد وعلمي وموضوعي .

من المعلوم أن فون غولف قـد طلب الى الجيش الالمانـي كضابط احتياط عندما اعلنت الحرب العالمية . ومن المعروف أيضاً أنه من سلالة سويسرية وعائلته تعمل في تصليح وتصنيع الساعات منذ قرنين وامـا سبب اعطاءه اسم غولف فيرى بعض المؤرخين بأن سبب ذلك أنه كـان يلبس بنطال غولف ويرى البعض الآخر أن السبب عائد لكونه يتقن لعبة الغولف بشكل ممتاز .

كان غولف ساعاتي مثل جميع أفراد عائلته فقد كان يصلح الساعات المعطلة خلال زمن قصير وكان بذلك يحمي كل زملائه في العمل .

ولأنه كان مشغولاً جداً ولساعات طويلة بتصليح الساعات فقد كان يحب أن ينجز أعماله بأوقاتها ودون تأجيل وبناءً على هذه الصفات فقد عين في تعيير ساعات الجيش الألماني وكان مسروراً جداً بهذه الوظيفة .

كتب في مذكراته بعد الحرب أنه على الرغم من خسارة الجيش الألماني فقد كان سبباً في نجاح هذا الجيش لبعض الوقت وفي بعض الجبهات وسبب ذلك هو أنه كان يميّز ساعات الضباط والأفراد في تلك الجبهات .

هذا الضابط العجوز غولف الذي كان برتبة ملازم أول في بداية تعيينه وأصبح مقدماً بسبب الخدمات التي قدمها وفي آخر الحرب كان برتبة عميد وفي جبهة سيناء عيّن رئيس أركان الجيش العثماني الذي كان يقاتل الانكليز مما أهّله لاحراز رتبة باشا وعرف بعد ذلك بلقب فون غولف باشا .

وأما قيادة الجيش العثماني فقد أعطيت لحافظ يونس باشا الرجل الشريف والمتدين وكان من أول أعمال حافظ يونس باشا اقناع فون غولف باشا عندما أتى بقبول الاسلام ديناً ولكن فون غولف هذا الكافر كان مصراً على عدم القبول بدين الحق حتى أنه أثناء الهجوم الذي بدأ مع بزوغ الشمس في يوم ١٩ ربيع الأول وسيلان الدماء الذي سببه هذا الهجوم . كان حافظ يونس باشا يحاول مع فون غولف كي ينطق بالشهادة . لأنه كان يحبه كثيراً ولا يريد أن يخسره بالمجّان فقد كان يريده أن يموت شهيداً .

ولكن أثناء الهجوم الانكليزي اضطر الجيش العثماني على الانسحاب وكان سبب الانسحاب من وجهة نظر حافظ يونس باشا هو أن غولف لم يكن مسلماً .

إذن هكذا بدأ الخلاف بين حافظ يونس باشا وفون غولف باشا ومما زاد الخلاف حدة حول مسألة تعيير الساعات وأشعل الخلاف أخيراً مسألة ذيل الجدي .

حضّر فون غولف باشا خطة هجوم وتقوم هذه الخطة على إبادة العدو إذا طبقت فجأة عليهم . وحسب الخطة سيهاجم الجيش العثماني مؤخرة العدو في الساعة السادسة إلاّ تسع عشرة دقيقة . لقد كان فون غولف باشا بحكم عمله كساعاتي يستخدم كثيراً أوقاتاً دقيقة .

وقبل حافظ يونس باشا خطة فون غولف باشا وحدد وقت استعداد الجيش للهجوم في الساعة الخامسة إلاّ إحدى عشر دقيقة ، استيقظ فون غولف في الساعة الثالثة ، حلق ذقنه ولبس ثيابه ولمع حذاءه وكتب الرسائل التي سيرسلها الى كل أفراد أسرته المقيمين في ألمانيا وضع الخريطة في حقيبته ، أخذ منظاره وركب على الحصان وكان السائس خلفه ، وذهب الى المكان المحدد حسب الخطة للقائد مع بقية العناصر وكان يعم صمت الموتى على هذه الصحراء الباردة لأن الصحارى التي تكون شديدة الحرارة في النهار يكون ليلها بارداً للغاية . كان الليل يلم ستاره الأسود معلناً عن قدوم النهار . وعندما أتى الى المكان المحدد حسب أوامر حافظ يونس باشا لم يجد أحداً بانتظاره وأدرك أنه حصل خطأ في التوقيت .

وخوفاً من أنه قد أتى الى مكان خطأ بدأ يدقق بالخريطة على ضوء بيل كهربائي . وحاول استعمال البوصلة مع وضعية النجوم من أجل تعيين المكان وتأكد أنه لم يأتِ الى المكان الخاطىء . كان فكاه يضربان ببعضهما من شدة البرد وبدأ يصرخ : « حافظ يونس باشا !!!! » ، ولكن صرخاته لم تعطِ نتيجة أكثر من رجع الصدى في هذه الصحراء الغير منتهية ولأن العدو قد سمع صوته فقد بدأ الرصاص يطلق عليه فقرر فون غولف الواقع تحت وابل من الرصاص الهروب لأنه جرح وبصعوبة

انقذ روحه الغالية . وعندما عاد الى المركز وجد حافظ باشا يشخر وهو يعطي إشارات في جهاز المورس أيقظ فون غولف حافظ باشا وسأله قائلاً: « ما هذا العمل يا باشا ؟ » فقال حافظ يونس باشا : منذ قليل صليت الفجر ونمت ثم ماذا فعلت ؟ كيف توقظ باشا عثماني من نومه اللذيذ ؟

فقال غولف باشـــا :

« يجب أن يكون قد تم الهجوم » فقال حافظ باشا : « انظر ها هي خطتك سيتم الهجوم بعناية الله في الساعة الخامســـة إلا إحدى عشـــر دقيقة ، وسيدمر الكفار أجمعين وسينتصر دين الاسلام هل دهشت ؟» . عندئذ أظهر فون غولف ساعته قائلاً : « ما الذي تقوله يا باشا إن الساعة الآن السادسة ولقد مضى زمن الهجوم » . فقال حافظ يونس باشا : إن ساعتكم باطلة لأنها افرنجية ولهذا فنحن نستعمل ساعـــات شرقية » . رفع فون غولف شعره وقال : « يا إلهي في الخامسة إلا إحـــدى عشـــر دقيقة على النظام الشرقي يكون الوقت ظهراً فلو حصل الهجـــوم وقت الظهيرة فالجنود سيموتون من حرارة الجو » .

وبدأ النقاش بين الباشا العثماني والباشا الألماني . الافرنجية هي الباطل . لا بل الشرقية هي الخطأ وهكـــذا اشتعل الخلاف ولما حوّل غولف باشا الساعات التي تخص الجيش العثماني ضباطاً وأفراداً الـــى التوقيت الافرنجي مخالفاً الشريعة اشتد غضب حافظ باشا وهجم عليه قائلاً : « الساعات العثمانية ثابتـــة لاتخالف الوقت ، ولذلك يجـــب أن تحوّل ساعتك الى التوقيت العثماني . وفي أثناء هذا النقاش هاجـــم جيش العدو المركز وحاصروه ولذلك فقد اضطر الباشوان أن يتخلوا عن أربعة آلاف جندي وحمولة أربعة حيوانات أرزاق وتحميل ثمانية جمال أسلحة نارية كي ينجوا بأنفسهم .

بعد هذا التاريخ ومن كثرة ما فكروا بقضية الفرنجة والشرق فقد أصبح فون غولف باشا يذكر الانسحاب عندما يكون الحديث عن الهجوم

ويذكر الهجـوم عندما يذكر الانسحاب أمـا حافظ باشا كـان يذكـر الاستراحة عندما يذكر الهجوم ويذكر الهجوم عندمـا تذكر الاستراحة وبذلك جبلت رمال الصحراء بدماء العساكر المفقودين .

كان يوجد الجدي والجمال والحيوانات وقد كان يرى فون غولف: أنهم احضروا الجدي من أجل الاحتيـاط . فإذا ما نقص الطعـام عـن الجنود فسيذبحون الجدي ويقدمونه طعاماً للجنود . أما حافظ يونس باشا فقد اعترض قائلاً أن :

الجدي ليس من أجل الطعام بل من أجل تحديـد الجهات ولكـن فون غولف باشا دهش متسائلاً : « ألا تستعمل البوصلة ؟! » .

ورغب فون غولف بعد ذلك معرفة كيفية استخدام الجدي لتحديد الجهات ولذلك فقد شرح له كالتالي :

« لقد خلق الخالق للجدي ذيلاً قصيراً ، ولم يغطِ مؤخرته ولذلك، تبقى المنطقة مفتوحة مما يؤدي وصول البرودة إليها ولذلك فإن الجدي يوجه مؤخرته بعكس رياح الشمال الباردة لكي لا يشعر بالبرودة أي تكون مؤخرته باتجاه الجنوب وقرنيه باتجاه الشمال ، إن المولى خلق كل شيء وجعل سبباً وراء خلقه أما ترك هذه المنطقة عند الجدي مكشوفة فسببه تحديد الجهات للإنسان » .

ولما سأل فون غولف باشا متعجباً « لماذا لا تستخدمون البوصلة؟!» فأجابـه : « لا يجوز الاعتماد على العبد لأن العبد خطّاء ، فلنفرض أن البوصلة معطلـة ألا نضيّع الاتجاهات أما الجدي فلا يمكـن أن يوجـه مؤخرته المكشوفة باتجاه الشمال » .

بدا خلاف جديد بين الباشا العثماني والباشا الألماني على تحديد الجهات إثر تعرض الجيش لهجوم الأعداء . حافظ يونس باشا لا يعتمد

في تعيين الجهات إلاّ على ذيل الجدي لأن البوصلة قد تكون معطلة ولكن لا يمكن لأي جدي أن يكون معطلاً .

فالباشا يقول : « الدنيا تدور ونحن ندور فوقها فكيف لإبرة البوصلة أن تبقى بنفس المكان متجهة نحو الشمال ؟ » .

فون غولف باشا على عكسه تماماً فهو يعتمد على البوصلة ولا يرى حاجة للاعتماد على الجدي وفي ساعة الهجوم لم تتفق ابرة البوصلة مع ذيل الجدي فكل منهما يعطي اتجاهاً مغايراً للآخر ولكن حافظ باشا أعطى أمراً للجيش بالهجوم بناء على ذيل الجدي وعندما كان الجيش في طريقه للهجوم سمعوا صوتاً من خلفهم « هر ررررر » ، وبعد ذلك أدركوا أنهم ينسحبون بدل أن يهجموا واكتشفوا أيضاً أن العدو يهجم عليهم من الخلف وبناء على هذا قال فون غولف باشا : « انظروا ها هي نتيجة اعتمادكم على ذيل الجدي » .

فبدل أن تهجموا نحو الجنوب انسحبتم نحو الشمال

لكن حافظ يونس باشا قال : لا يمكن وجود خطأ في ذيل الجدي . فذيل الجدي لا يخطىء ابداً . إن أصل الخطأ موجود في بوصلة الانكليز فقد أخطأ الجيش . فبدل أن يهربوا أمام هجومنا نحو الجنوب اتجهوا مهاجمين نحو الشمال . « الخطأ كامن في الانكليز وليس في ذيل الجدي »

لقد أدى انسحاب الجيش لمدة معينة الى خسارات كثيرة حتى وقفوا على خط الدفاع . وفي النهاية اعتمدوا على ذيل الجدي من أجل عملية الانسحاب فوجدوا انفسهم بكامل جيشهم في منتصف جيش الانكليز ولما قرروا الانسحاب من جديد هاجموا الانكليز . ولما قال غولف باشا « هذه نتيجة استخدام ذيل الجدي بدل البوصلة » .

فاعترض حافظ باشا وقال بأن الانكليز هم الذين يخطؤون في تحديد الجهات . وبعد هذه الحادثة قال فون غولف باشا . لا أجد لي

مكاناً بين جماعة يستخدمون ذيل الجدي في تحديد الاتجاهات قــدم استقالته وعقد العزم على العودة الى بلده . وانتقلت هذه الحادثة من التاريخ الى يومنا هــذا والمناقشة موجودة بين المؤرخين وحول هــذا الموضوع فالأوروبيون يرون ومن دافع عداوتهم لنا أنه عيب على حافظ يونس باشا استخدام ذيل الجدي في تحديد الاتجاه ولكن اليوم نستطيع أن نقر بأن الخطأ ليس في ذيل الجدي بل في البوصلة التي كان يستعملها الانكليز أو بسبب وجود معدن قريب من الجيش مما أدى الى اتجــاه الابرة نحو جهة هذا المعدن وهناك احتمال آخر أن الجدي الذي كان مستخدماً في تحديد الاتجاهات كان مريضاً وكانت حرارته مرتفعة جداً ولهذا فقد وجه الجدي المسكين مؤخرته باتجاه الشمال لكي يخفف من حرارتــه .

نأمل من خلال هذه المناقشة والمطالعة بهذه القصة أن نكون قــد بينا الخطأ الفادح والواضح جداً الذي ارتكبه المؤلفون الغربيون .

هل يوجد مثل الحضارة

منذ اول يوم من زواجنا وزوجتي تطالب بطنجرة بخارية :

لا يوجد اي سبب لعدم إحضاري طنجرة بخار سوى قلة النقود ، وزوجتي تشرح لي باستمرار افضال طنجرة البخار :

ـ اوفر الزمن ، لن أضيع ساعات طويلة في المطبخ من اجل الطبخ تنضج الطبخة بسرعة اكبر باستعمال طنجرة البخار :

ـ هذا صحيح يا روحـي .

ـ ونوفر نقوداً أيضاً ، فإذا اشترينا طنجرة بخار سيقل مصروف الغاز علينا .

ـ معك حق يا حبيبتي .

ـ الطبخ في طنجرة البخار سيكون الذ لانه يحفظ البخار في الداخل ويمنع خروج طعم الخضار واللحمة .

ـ تقولين الحقيقة يا عزيزتي .

كانت تغضب من مجاملتي هذه فلو قلت لها وهي تطالبني بطنحرة البخـار :

« كلا لن أشتريها فطنجرة البخار لا تنفع لاي شيء » لصمتت او كانت في أسوأ الحالات تحاول إقناعي بتقديم اوصاف الطنجرة وافضالها ومن أجل إقناعي اتبعت أسلوباً جديداً .

ـ إنه أمر معيب للغاية ، إذ لا يوجد بيت آخر غير بيتنا لا يملك طنجرة بخار ، كل معارفي يملكون طنجرة بخار في بيوتهم ولا يوجد في بيتي طنجرة .

ـ أنت محقة يا حبيتي .

مضت مدة طويلة على هذه الحال بعد ذلك جربت أسلوباً جديداً :

ـ حتى الباعة الجوالون يملكون في بيوتهم طنجرة بخار ، أنا لا أطلب منك سيارة أو ثلاجة ، كل ما أطلبه هو طنجرة بخار إنها أرخص شيء .

ـ كم انت محقة يا حبيبتي .

إنه لمن الأفضل أن تطلب سيارة إذ أنني سأقول لها وقتئذ :

« لا يوجد معي نقوداً ولا أستطيع أن أشتريها » وينتهي الموضوع ولكن من الصعب على الزوج أن يقول لا أملك نقوداً تكفي الشراء طنجرة بخار .

ونحن نتناول طعام العشاء في إحدى الأمسيات قالت بشكل مفاجىء

اتعلم ؟

ـ قلت .

ـ ماذا ؟

ـ اليوم يصادف الذكرى السابعة لزواجنا .

ـ لا !!!! . . . هذه هي السعادة الزوجية يا حبيبتي لم نشعر بمرور سبع سنوات على زواجنا شيء مدهش .

قالت :

ـ نعم إنه مدهش أن تمضي سبع سنوات دون طنجرة بخار .

غليت الفاصولياء أربع ساعات على الغاز ، ولو أننا نملك طنجرة بخار لكنت طبختها خلال نصف ساعة .

ـ فعلا يا حبيبتي ... فعلا يا روحي .

ـ انت تخرج الإنسان عن طوره .

ـ ولماذا يا حبيبتي ؟

شربت زوجتي كأس ماء لكي تبلع لقمة وقفت بحلقها وكادت تخنقها

في إحدى المرات أعجبت كثيراً بمقالة كتبتها للصحيفة التي أعمل بها ومن أجل معرفة رأي زوجتي بالمقالة أعطيتها إياها وقلت :

ـ اقرئيها وأعطني رأيك فيها .

ـ كل ما تكتبه خطأ ، سببت لي هذه العبارة أول جرح خلال حياتنا الزوجية فصرخت قائلا :

ـ لماذا ؟

ـ لأنك قبل كل شيء لست إنساناً متمدناً .

ـ إنك تحقرينني ، ألا تشعرين بذلك ؟

ـ إنه ليس تحقيراً بل حقيقة ... الانسان المتمدن هو الإنسان الذي يستعمل الوسائل التقنية الموجودة في أيامه ويستفيد من خبراتها . كيف يمكن لإنسان أن يفكر بعقلية القرن العشرين وهو يستعمل وسائل القرن

التاسع عشر ؟ انه لمن المؤكد ان الإنسان الذي يستعمل الآلة الكاتبة متطور عن الإنسان الذي يستعمل الريشة ، إن الآلة التي يستخدمها الإنسان هي التي تحدد شخصيته . تتغير أفكار الانسان وتتطور تبعاً للآلة التي يستعملها في العصر الذي يعيشه .

فإذا ادعى أحدهم المدنية وقال أنه انسان متمدن أسأله :

« أيوجد في بيتك ثلاجة ، تلفزيون ومكنسة كهربائية ؟ أتملك سيارة؟ اتكتب بواسطة الآلة الكاتبة ؟ » فإذا أجاب بالنفي يكون كاذب فيما ادعاه فلا يمكن أن يكون رجلا متمدناً من لم يستعمل هذه الآلات . فبأي حق تكتب المقالة وتحاول أن ترشد الآخرين بها .

لأول مرة أشعر بالحزن لانني تزوجت من امرأة مثقفة .

وفي اليوم التالي اشتريت طنجرة بخار فأحضرتها الى البيت . وقلت .

ـ ها نحن قد دخلنا الى عصرنا بواسطة طنجرة البخار يا حبيبتي مباركة انشاء الله . أؤمن انه سيطرأ تغير على تفكير المراة التي تستعمل طنجرة البخار هذه . حقيقة انا متأكد من ذلك إذ أنه لا يمكن أن يستوي الذي يستعمل طنجرة البخار والذي ينفخ نار الحطب تحت الطنجرة العادية .

مرت ايام وشهور وزوجتي لم تستعمل طنجرة البخار . والآن جاء دوري في الكلام فقلت :

ـ لماذا لا تستعملي طنجرة البخار ؟

ـ لا شك سأستعملها ولكن لن أستعملها الآن فقط .

ـ يا حبيبتي لماذا لا تطبخين بطنجرة البخار ؟

ـ سـأطبخ .

ـ كانت تسكتني بعدة كلمات ولكني لم أدعها وشأنها .

ـ يا روحي لماذا لا تستعمليها ، لا أعتقد أننا اشتريناها للزينة .

كنت أتحدث بنفس الموضوع دائماً :

ـ كان يمكننا أن نذهب ونشاهدها في واجهات المحلات .

ـ المدنية لا تعني مشاهدة الوسائل التقنية بل استعمالها .

وفي النهاية قالت زوجتي :

ـ إن طناجر الألمنيوم والنحاس تفي بحاجتنا الآن .

ـ ما دام الأمر كذلك ... لماذا اشترينا طنجرة البخار .

ـ يا روحي لن أستعملها لأني أخاف عليها من أن تعطل وتعتق .

لا أعتقد أنه باستطاعة الأمم المتقدمة صناعياً فهم كلام زوجتي .

عندما أحضرت المذياع أول مرة الى بيتي لم ألمس مفتاحه لعدة أيام خوفاً من أن يتعطل .

أحد أصدقائي اشترى هاتفاً فبدأ يتصل بجميع الأرقام التي معي رقماً رقم .

لم أعد ألح على زوجتي أن تطبخ لنا بطنجرة البخار ولكن أحيانا أقـول لهـا :

استعملي طنجرة البخار فقد حان استعمالها .

وفي إحدى المرات قالت :

ـ الا تفهم : إني أخاف كثيراً .

فقلـت :

ـ مما تخافين ؟

ـ إذا انفجرت ستحدث مصيبة .

يقولون بأن الناس عندما شاهدوا السيارة تمشي في الشارع لأول مرة اعتقدوا بأنها حيوان غير معروف فقدموا لها العشب كي تأكل .

في يوم من أيام الأحد كانت طبختنا لا تكفينا ومع ذلك اتى إلينـا ضيوف في موعد الغداء في يـوم سعيد كهذا قررت زوجتي استعمال طنجرة البخار ، كانت تعمل في المطبخ بينما أحاول تسلية الضيوف وبعد حوالي نصف ساعة قالت زوجتي أرجو أن تأتي قليلاً .

ذهبت الى المطبخ فقالت زوجتي التي كانت تسبح في بحر من العرق:

ـ منذ الصباح وأنا أحاول فتح هذه الطنجرة ولكن دون فائدة ، حاولت فتح غطائي الطنجـرة المطبقين على بعضهمـا حضنت الطنجرة وحاولت فتحها ولكن لم أستطع فتح الطنجرة أكثر من مليمترين أو ثلاثة فقالت زوجتي :

ـ ماذا سنفعل الآن ؟

ـ لا أعـرف .

ـ لنسأل الضيوف .

ـ من العيب ان نسأل الضيوف سوف يقولون لم يستطيعوا فتح طنجرة بخار .

ـ ولم العيب .... أنا أسألهم .

أخذت الطنجرة المغلقة الى الضيوف وقالت :

ـ هل تعرفون كيف تفتح هذه الطنجرة ؟

قالت إحدى الضيفات :

ـ آ ... إنها موديل آخر تختلف عن طنجرتنا .

قالت إمرأة أخرى :

ـ إنها تشبه طنجرتنا ...

ولكنها لم تستطيع فتحها وزوجها أيضاً لم يستطع فتحها .

ـ الا يوجد كتلوك .؟

ـ نعـم ...

ولأن هذا الكتلوك يشبه غيره من الكتلوكات التي تكتب عادة بلغة لا يستطيع الانسان فهمها فقد فسره كل شحص على هواه ولهذا وجدنا انفسنا أمام سبع طرق لفتح الطنجرة ، ومع ذلك لم تفتح رغم أننا جربنا الطرق السبعة .

فقالت زوجتي للمرأة التي لديها طنجرة من موديل طنجرتنا :

ـ كيف فتحتم طنجرتكم ؟

فقالت المرأة :

نحن اشتريناها مفتوحة لأن أحد الجيران الذي أخذ طنجرة مغلقة قـال لنـا :

« خذوا حذركم ها ... واشتروا طنجرة مفتوحة » ونحن عملنا بنصيحتـه .

ـ أو َلم تغلقوها في بيتكم بعد ذلك ؟

دهشت المرأة وقالت :

ـ طبعاً نغلقها ولكن طنجرتنا البخارية اعتادت على ذلك فأصبحت سهلة الفتح والاغلاق .

حركنا الغطائين الى هذه الناحية والى تلك واستطعنا بالنهاية فتحها. اخذت زوجتي الطنجرة وذهبت الى المطبخ أما أنا والضيوف فقد دخلنا في حديث عن مساوىء صناعتنا المحلية .

قال أحد الضيوف :

ـ الصناعـة الأوربيـة مختلفة ، بحركة واحـدة تفتـح وبحركة معاكسة تغلق .

ـ وقال آخر :

ـ وصناعتنا لا تفتح ولا تغلق .

دخلت زوجتي والطنجرة بيدها : وقالت :

ـ كيف يوضع مفتاح البخار ؟

ومن جديد عدنا الى الكتلوك وقرأناه وبدأنا نجرب استناداً الى الأشكال المرسومة في الكتلوك ولكن لم نعرف المكان الذي نضع فيه مفتاح البخار .

قال أحد الضيوف :

ـ لو لم نقرأ الكتلوك لركبنا المفتاح وانتهينا .

أصبحت الساعة الثانية عشر ولم توضع الطنجرة على النار .

قالت زوجتي :

ـ قولوا لي بربكم ... كيف تستعملون هذه الطنجرة .

قالت امرأة عجوز يا ابنتي بالنسبة لي فقد أخرجت البلاستيك الذي في الطنجرة خوفاً من أن تنفجر وأستعملها الآن مثل أية طنجرة عادية .

ـ هل تطبخ بسرعة في هذه الحالة ؟

ـ لا ا ا ا ، بل تأخذ وقتاً أكثر من الطنجرة العادية ولكنها تبقى طنجرة عادية على أية حال .

سألت زوجتي ضيفة أخرى :

ـ أيوجد لديكم طنجرة بخار ؟

ـ آ آ ... طبعاً يوجد .

ـ وكيف تستعملونها ؟

ـ إن كنت تريدين الحقيقة يا حبيبتي فأنا اشتريتها في السنة الماضية وحتى الآن لم أستعملها . بقيت كما هي .

واعترفت ضيفة اخرى بأنها تستعمل طنجرتها البخارية كوعاء للماء.

أصبحت الساعة الواحدة فقلت لزوجتي :

ـ اسألي الجيران فكلهم لديهم طناجر بخار .

ذهبت زوجتي الى بيت الجيران وبعد نصف ساعة عادت حزينة وبيدها الطنجرة وقالت :

ـ منوّر خانم تستعمل الطنجرة دون رفع غطائها . وبرين خانم لا تستعمل طنجرتها من الخوف .

وحورية خانم طبخت بطنجرة البخار مرة واحدة دون رفع غطائها ومنذ شهرين والطعام موجود في الطنجرة .

ـ حسناً وماذا سنفعل ؟

ـ ربة منزل جيراننا الذين يسكنون في الطابق العلوي ذهبت في رحلة اصطياف ولا يوجد في البيت غير زوجها لأذهب وأسأله :

أخذت الطنجرة وذهبت الى جاري الذي في الطابق العلوي وقلت له:

ـ عفواً ارجو الا اكون قد سببت لك اي إزعاج . أيوجد لديكم طنجرة بخار ؟

ـ طبعاً موجودة .

ـ فسألته بسرور :

ـ اتستطيع أن ترشدني الى كيفية استعمالها ؟

فقال الرجل :

ـ تفضل الى الداخل لحظة من فضلك .

أخذني الى المطبخ ، وضع يده على كتفي وأشار الى السقف باليد الأخرى وقال :

ـ انظـر ...

كان يوجد في السقف مجموعة من الخطوط المجردة المكونة من الألوان الأصفر والأخضر والأحمر ولأنني ظننت بأنها إحدى أعمال الديكور قلت :

ـ جميل جداً .

ـ معنى ذلك أنها أعجبتك .

ـ نعـم .

ـ زوجتي مبدعة ، هذا اللون الأحمر هو رب البندورة واللـون الأصفر بطاطا وأما القسم الذي يشكل الخلفية فهو لحمة .

ـ برافو فعلاً أنه ديكور مطبخ رائع .

ـ إذا نسيت زوجتك طنجرة البخار على الغاز فإنكم ستحصلون على ديكور بهذا الجمال .

شكرته وخرجت من عنده .

أعطيت طنجرة البخار لزوجتي وقلت لها « افعلي ما بدا لك » .

ولقد استطاعت زوجتي باستخدام ذكائها تركيب مفتاح البخار على الطنجرة . ثم وضعت الطعام في الطنجرة بناء على تعليمات الكتلوك وبعد ذلك وضعتها على النار .

وقف الضيوف في المطبخ وبدأوا ينتظرون بفارغ الصبر أما زوجتي فقد أنقصت كمية الغاز المتدفق الى أبعد حد كي تخفف النار خوفاً من انفجار الطنجرة . كانت النار خفيفة تحت الطنجرة لدرجة أني اعتقدت ان الطبخ يحتاج لسنة على الأقل حتى ينضج في هذه الأثناء قالت إحدى السيدات :

ـ خففي النار قليلاً وإلا ستنفجر الطنجرة .

أدارت زوجتي مفتاح الغاز وخففت النار قليلاً فقالت عجوز من بين الضيوف .

اعتقد بأنه إذا رفعت الطنجرة عن النار قليلاً سيكون أفضل لأنه سيخف تأثير النار عليها . والإنسان لا يعرف ساعة النحس .

قلت :

ـ ولكن لن ينضج الطعام .

ـ آ آ ... إنها بخارية ، خلال ثانية واحدة تطبخ الطعام .

وضعت زوجتي قاعدة تحت الطنجرة فرفعت عن النار قليلاً ، لقد كان الاضطراب واضحاً علينا جميعاً ، ونحن ننتظر انفجار الطنجرة .

ـ اصغوا لصوت البخار ... عندما تزمّر أطفيء النار تحت الطنجرة .

ـ أنا أخاف .

ـ عندما تزمّر ارفعي الطنجرة .

ـ إن بخار هذه الطنجرة لا يزمّر بل يصفّر .

قال احـد الضيوف :

ـ ارجو ... ان تخفضوا قوة النار قليلاً اخاف إن تنفجر .

كانت زوجتي تمسك مفتاح الغاز لكي تخفض قـوه النـار عندما سمعنا صوت « ظ ر ر ر ر » فرمت زوجتي نفسها على الجدار اما بقية الضيوف فقد هربوا في كل الاتجاهات وعندما علمنا أن الصوت هو صوت جرس البيت ارتحنا كثيراً ، كنت أقف عند باب المطبخ فقلت لزوجتي :

ـ ابتعدي قليلاً .

بعد قليل خرج صوت « باط » كاد احد الضيوف على اثره ان يرمي نفسه من البلكون .

ـ لا شيء يا أخي أحد الأشخاص اسقط كتبه .

ـ لم لا تخفضوا النار قليلاً تحت الطنجرة .

ادارت زوجتي مفتاح الغاز قليلاً . وانتظرنا صفير البخار من الطنجرة . واصبحنا نخاف من كل صوت نسمعه ومع مرور الزمن انقلب الجد الى مزاح وبدأ الضيوف يخيفون بعضهم البعض بإخراج اصوات مفاجئـة .

مضت نصف ساعة ، اربعون دقيقة ولكن الطنجرة لم تصفر كدنا نموت جوعاً .

قال أحد الضيوف الذي لم يعد يصبر على الجوع .

ـ لقد نضجت لننزلها عن النـار .

ـ لكنها لم تصفر .

ـ لا شك أن بخارها معطل ، فلو كان حجراً داخل طنجرة البخار لنضـــج .

وعندما أنزلت زوجتي الطنجرة عن النار صرخنا بصوت واحـــد « آخ » النار مطفأة تحت الطنجرة ، خفضت زوجتي النار شيئاً فشيئاً حتى أطفأتها دون أن تدرك ذلك . فجلسنا والضيوف نأكل خبزاً مـــع الجبن والزيتون لم نصبح أصحاب طنجرة بخار إلا بعد ستة أشهر من شرائها لاننا بعد ستة أشهر تعلمنا طريقة استعمالها .

حقيقة ان طريقة تفكيرنا تغيرت وتطورت باستعمال طنجرة البخار . اما الآن فقد بدأت زوجتي بشرح أفضال وميزات الغسالة الأوتوماتيكية .

• • •

جزمة باشا متقاعد

ـ انظروا إليَّ ... تعالوا إلى هنا ، ايات كل الموجودين ، اعطوني إياها ... هيا ماذا تنتظرون ؟ اعطوني إياها بسرعة .

ـ ماذا تريد ؟

ـ اريدها ياحبيبي .   ـ وماذا تريد ؟

ـ ما اسمها ؟! إن اسمها على طرف لساني ولكني لااستطيع تذكره.

ـ اتريد ادويتك ؟

ـ لا ياروحي ، اريدها .. التي كنت ألبسها منذ زمن .

ـ قبعتك ؟

ـ لا ... لاتوضع على الراس ، تلبس بالارجل .

ـ ما هو شكلها ؟

ـ اقول لكم إنها تلبس بالارجل .

ـ ايو !!!! .... تريد جرابك

ـ يا روحي ، إنني البس جرابي كما ترى ... آه يا إلهي لااستطيع تذكر اسمها ، الم تتذكروا انتم ؟

ـ تقول أنها ليست جراب ؟

ـ الا يلبس شيء بالرجل غير الجراب ؟ الذي اقصده شيئاً يلبس فوق الجراب .

ـ آ آ ... تريد شحاطك ؟

ـ لا ليس شحاطاً وهل ينزل إلى الشارع بالشحاط ؟ التي أقصدها شيء ويمكن أن تلبسها وتخرج إلى الشارع بها .

ـ قل إنك تريد حذاءك .

ـ لا .

ـ كلاشك ؟

ـ لا ليس كلاش .

ـ شحاط ، حذاء ، صباط .

كلهم بنفس المعنى ، الذي أقصده طويل جداً .

ـ آ آ ا ا ... تريد بوطك ؟

ـ اي بوط ! الذي أقصده له قصبة أطول من قصبة البوط .

ـ فهمنا تريد بوطك ذو القصبة الطويلة .

ـ لا ليس هو ماأقصده ياسيدي .

ـ حسناً ... ما اسمه ؟

ـ لو اتذكر لقلت اسمه...عندما ينتعله الإنسان يصل حتى ركبته .

ـ هل تقصد الجزمة .

ـ آخ ... نعم ، احضروا لي جزمتي .

ــ وهل كان لديك جزمة ؟

ــ ادي جزمة ؟ طبعاً لدي جزمة ، الم اكن البس جزمة فيما مضى؟ يوجد صور كثيرة لي وأنا أنتعل الجزمة .

ــ لم نرك تلبسها .

ــ وهل رايتم شيئاً في هذه الدنيا ؟ مازلتم اطفالاً

ــ يعني انك كنت تلبس جزمة .

ــ طبعا كنت البس جزمة ، ولكن منذ زمن بعيد جداً ، منذ اربعين أو خمسين او مئة عام .. لا اذكر ، إيه يازمن ، كنت البس جزمة ولكن اية جزمة !؟

لم يكن في زمني اي رجل يعرف كيف يلبس جزمته اكثر مني .

ــ هذا فيما مضى ؟

ــ ماذا تعني ؟ هل تعتبر الأربعين عاماً زمناً قديماً ، لقد ولد عيسى قبل ١٩٦٤ عاما ، فكر قليلا ؟ تجد وكأنه البارحة ... هيا هيا احضروا لي الـ ... ماذا كان اسمها ؟

ــ ماذا قلتم ؟ ــ جزمة ...

ــ نعم نعم ... احضروا جزمتي اريد جزمتي ، هيا ....

ــ وماذا ستفعل بها ؟

وماذا يفعل بها ؟ طبعا سألبسها ، هيا بسرعة احضروا جزمتي .

ــ أين هي ؟

ـ ومن اين لي ان اعرف ؟ ابحثوا عنها تجدوها ، لاشك ستكون في البيت .

ـ نخشى ان تكون قد نسيتها في مكان ما .

ـ كلا ياسيدي وهل انسى جزمتي التي البسها ؟! ... ماذا تنتظرون ؟ هيا جدوا جزمتي ، النسوة والأولاد والأصهار والكنات والخدم ، والطباخون بدؤوا يبحثون عن جزمة كانت تلبس منذ أربعين عاماً ، ولكنهم لم يجدوا الجزمة ولاشيء يشبه الجزمة .

ـ لنبحث في الصندوق الموجود في غرفته .

ـ اين كان يخبىء اشياءه القديمة ؟

ـ الم تجدوها في صندوق الخردوات ؟

ـ لنبحث في خزانته .

ـ اخشى ان تكون قد بقيت في البيت القديم .

ـ ابحثوا تحت الكراسي والمقاعد .

ـ في خزانة المطبخ .

ـ ومن سيضعها هناك ؟

ـ لاتوضع هناك .

ـ هل اعطيناها لبائع الأشياء القديمة ؟

ـ ابحثوا في الخرج ، يوجد أشياء كثيرة في الخرج .

ـ غير موجودة في الخرج . اذن لاشك أنها ستكون في القبو ...

ـ وجدت جزمة بلاستيك مفردة غير أنها مليئة بالثقوب .

ـ لا ياروحي لايمكن أن تكون هي .

ـ أخشى أنتكون في الغرفة الموجودة في الحديقة ـ لا . . لا .

ـ أين ستكون اذاً ؟ لم نجدها في أي مكان .

ـ في خزانة الأحذية ....

ـ بحثت هناك ولم أجدها ـ وهل بحثتم في الـ.... ؟

ـ نعم ـ ها هي .

ـ لا ياروحي هذه ليست جزمتي ... هذه جزمة نسائية .

ـ وجدتها .. وجدتها !!! ....

ـ أين كانت ؟

ـ اخرجتها من تحت أكياس قديمة كانت موجودة في السقيفة « العلية » .

ـ احضروا جزمتي .

ـ لم يبق فيها شيء يلبس ، مغطاة بالوسخ والغبار .

ـ امسحوها لمعوها

ـ في داخلها عنكبوت .

ـ نظفوهـا .

ـ لا تلبس ، لا يوجد عليها بويـا

ـ ادهنوهـا .

ـ لقد يبست واصبحت مثل الخشب

ـ زيّتوهـا

ـ تمزقت قصبتها ـ ليكن .

ـ انتزع سافلها .

ـ دقوا المسامير فيـه

ـ وهل ستلبسها ـ طبعاً

ـ هل ستدخل رجلك فيها ؟

ـ كـلا ... وماذا سيدخل فيها هاه .. ؟

ـ سنشتري لك بدلاً عنها

ـ لا يمكن لقد اعتادت رجلي عليها .

ـ هيا لنرى ... أحضروا جزمتي ... أعطوني فردة اليسار .. هيا .. يا الله بسم الله ... لحظة لحظة ... لا تدفعوني .. ادفعـوا الجزمة ... هيا كلنا مع بعض ... هوب هوب ... هيا ... هوب هوب هوب ... لقد دخلت قليلاً .

ـ إنك تلبس الجزمة بالخطأ ... هذه الفردة للرِّجل الأخرى .

ـ آخ يا إلهي ... لقد نسيت ، طبعا هذه رجلي اليمين أين رجلي اليسار ؟ أقصد الفردة اليسارية أحضرها الى هنا .. جيد .. هيا من البداية لا تدفعوا بهذا الشكل إنكم تؤلموني كثيراً .. كم كنت ألبسها بسهولة ... كنت ألبسها بلمح البصر إيه يا زمن لقد خرب الزمان هيا ادفعوا ، لا تدفعوني أنا يا شباب ادفعوا الجزمة ـ قليلاً بعد هيا ... واحد ـ اثنان ـ هووووب ... لا تدفعوني نحو الجزمة بل ادفعوا الجزمة نحوي .

ـ لقد ضاقت

ـ من الذي ضاق ؟ رجلي ؟

ـ الجزمة .

ـ لا مفر لهذه الجزمة ، سألبسها مهما حصل

ـ يا إلهي إنها ضيقة جداً .

ـ ليكن

ـ أيواه ... لقد تمزقت

ـ لتتمزق .. لماذا لا تريد أن تدخل ؟ أخشى الا تكون هذه هي جزمتي .

ـ أقسم إنها لك .

ـ فعلاً إنها لي ... قليلاً بعد هيا ... أفضل ... مساعدة اكثر يا شباب ... ليس بهذا الشكل ... انكم تؤلمونني ... الم تروا في حياتكم كيف تلبس الجزمة ؟ الحمد لله .. لقد دخلت واحدة ، هيا هيا أعطوني الأخرى .

ــ ولكن بقي كاحلك في الخارج .

ــ ليبقى المهم أن يدخل المشط ، هيا

ــ لقد استعصت

ــ ليكن ... ادفعوا قليـلاً ... امسكوا جيـداً ... مساعـدة يا شباب ، دخلت ... تمام أمسكوا يدي كي أمشي قليلاً ... أمان .. آخ آخ ... انها تضغط على رجلي آخ اخلعوها مـن رجلي هيـا ... يوجد فيها مسمار ، لقد دخل في رجلي هيا اخلعوها ...

ــ لا تخلـع .

ــ وكيف دخلت ... إنها تؤلمني اخلعوها فوراً .

ــ لا تخلـع

ــ مزقوهـا

ــ أين السكين ؟

ــ ألا يوجد شفرة ؟

ــ هل تنفع ماكينة الحلاقة الكهربائية ؟

ــ أعطني خنجـراً .

ــ وهل ينفع الساطور ؟

ــ هل يوجد ساطور ؟

ــ كـلا لا يوجـد

ـ مزقوهـا بأيديكم

ـ اوف .. امان ..

ـ لقـد خرجت

ـ آه .... الحمد لله ... أوف أوف ... لقد كدت أموت ، هيا اطلبـوا الطبيب . ... ليـأت الطبيب ... اتصلوا هاتفيـاً بالطبيب هيا!!!!! ....

رجل الأعمـــال الذي يهوى الشعر

كان ذلك في العمر الذي أطلق فيه علينا لقب شعراء ، وكان آخر يوم في الشهر ولم اكن أملك يومئذٍ سوى ليرتين ونصف الليرة ، ويعني ذلك انني مجبرٌ على التوفير كثيراً ، مع أنه كان لـ . . «الليرتين والنصف» قيمة كبيرة في الأيام التي كنت فيها شاعراً . خرجت من العمل وذهبت الى البيت ، وكنت حديث العهد بالزواج ، قالت زوجتي بصوت حزين ـ لكم أتمنى أن تطنّ اذناها ، الله أعلم اين هي الآن ـ

ـ حبيبي حسن ، ارجوك لا تذهب اليوم الى اي مكان ، دعنا نتناول طعام العشاء سوية في البيت .

فكرت بالنقود التي معي وقلت لها وكأنني قبلت رجاءها :

ـ كما ترين يا حبيبتي .

● كان في تلك الأيام يجتمع فنانو أنقرة في مقهى يدعى / دفنن باشي « رأس الجمل »/يسكرون ويقرؤون الشعر ، ثم يتشاجرون ويتضاربون لقد ترك معظم الكتاب والشعراء المشهورين ذكريات في مقهى/دفنن باش/.

● بدأ مللي يزداد شيئاً فشيئاً وأنا جالس في البيت ، لأنني لم اذهب الى المقهى ، اعتقد بأني سأصاب بالجنون إذا لم اقرأ القصيدة الجديدة التي كتبتها للأصدقاء ، كنت أردد في نفسي مقولة :

« الله يلعن قلة النقود » ، التفت الى اليمين ثم الى اليسار ، تأوهت، تأففت ، وفي النهاية أدركت زوجتي الحالة التي أمر بها . . . فقالت :

ـ حبيبي حسن ، إذا كنت تشعر بالملل وانت جالس في البيت فلا ضـــير من ذهابك الى المقهى لو اني أملك النقود لما انتظرت دقيقة واحدة ولهذا صرخت :

ـ إنك ترفضين الليلة الوحيدة التي قررت فيها المكوث في البيت .

ـ بكت زوجتي دون أن تشعرني بذلك ، وبعد قليل بدأت بتحضير المائدة وهي تغني .

اصدقائي كثيرون ... آه لو يأتي أحدهم ويقول « هيـــا ، لنذهب الى المقهى » ولكن الأوباش لا يأتون ، عندما يكــون لــدي نقــود أدعوهم واشربهم خمراً حتى يسقطون تحت الطاولات ، إنني مخطىء بعض الشيء ، فلو ذهبت الى المقهى لدعاني احد الأصدقاء أصحاب الضمير الى كأس من النبيذ ولكن كيف قبلت اقتراح زوجتي بأن ابقى في البيت ؟ كمــا اني لا استطيع ان اقول لزوجتي التي تحضر المائدة وهي تضحك وتغني بفرح لانهــا ستتناول الطعام مع زوجهــا ... لقــد مللت أريــد ان أذهب ، لا استطيع ان اتراجع عن كلمتي أو ان أكسر خاطرها .

آه لو يأتي احد الأصدقاء يقول « هيا يا حسن » آه لو يأتي ...

عندئذ لن تستطيع زوجتي ان تفتح فمها بكلمة واحدة .

لحظتها طرق الباب .

صرخت بفرح :

ـ من هذا ؟

فقالت زوجتي : ـ جاء حيدر بك .

ـ آه ، كمال حيدر ؟...إني أعلم بانه اكبر شاعر في العالم...حيدر البطل ...

ونزلت الدرج مثنى مثنى وحضنت كمال حيدر وكأنني لم أره منذ سنين علماً بأننا افترقنا في الأمس على باب المقهى .

ــ حبيبي حيدر ... تعال .. تعال يا أخي ... تعال يا روحي .

فقال كمال حيدر : ــ دعك من هذا ... ماذا سأفعل في البيت في وقت كهذا ؟ هيا لنخرج .

همست بأذن كمال حيدر :

أرجوك تكلم بهدوء ، كي لا تسمعك زوجتي ... لقد رجتني قائلة :

« لنتناول العشاء في البيت هذا المساء »

ولأني لا أملك نقوداً قبلت رجاءها : إنها تحضر المائدة ، ولا شك ان الله هو من أرسلك إليّ .

ــ ليس الله هو من أرسلني إليك ، بل عدم وجود النقود في جيبي هو من أرسلني إليك ، أتيت إليك لأني لا أملك قرشاً واحداً كي اذهب الى المقهى .

ــ واضح ... وهل كنت ستأتي لو انك تملك نقوداً ؟

ــ هيا لنذهب ، ادعني لكأس من النبيذ .

ــ يا إلهي يا كمال حيدر ، أنا لا أملك نقوداً .

ــ إذاً ابق في البيت كي تتناول العشاء مع زوجتك واسمح لي بالانصراف .

ــ امسكت بذراعه قائلاً : ــ قف يا ... الا تملك ذرة إنسانية ؟ ألا تخجل من تركي هنا وتذهب ؟

يوجد معي ليرتين سنشرب كأسين من النبيذ ونعود .

كانت الليرتان في تلك الأيام لا تكفي ثمن كأسين من النبيذ لكلينا وحسب بل تكفي ثمن كأسين لكل واحد منا مع المقبلات أيضاً ، لو قلت لكمال حيدر بأني املك ليرتين ونصف لتوجّب علينا ان نشرب بكل النقود التي املكها ... ولأني اريد ان يبقى معي خمسون قرشاً لوجبة طعام الفطور قلت له بأنني لا أملك سوى ليرتين .

قال : ـ لنذهب إذاً ، ليرتان تكفي .

ـ اطمأن ستكفي ولكن كيف سنخرج من هنا ؟ ستقول لزوجتي أن احد أصدقائنا مريض ودخل في غيبوبة ويجب علينا زيارته حالاً ـ أعرف أن كمال حيدر معلمٌ في مواقف كهذه .

قالت زوجتي :

ـ الطعام جاهز .

فقلت لكمال حيدر :

ـ تفضل الى الطعام .

فقال بحزن بالغ .

ـ إن نيازي مريض جداً ... لقد دخل المسكين في غيبوبة ويردد اسمك باستمرار .

ـ يا ! ! إلهي ... لقد حزنت كثيراً .

ـ لا استطيع أن أجلس ، اتيت فقط لإخبارك بالأمر ، الن تأتي معي؟

ـ لنتناول طعامنا ونذهب .

ـ آخ المسكين يلفظ انفاسه الأخيرة وانت تفكر بالطعام ...

ـ معنى هذا أن مرضه خطير .

ـ لا اعتقد بأنه سيعيش حتى الصباح ... أنا ذاهب .

نظرت لوجه زوجتي فقالت :

ـ يجب أن تذهب ، ولكن لا تتأخر سأنتظرك لنتناول طعامنا سوية .

ـ لا ... لا تنتظريني ، تناولي طعامك يا حبيبتي ، فقد اتأخر كما ترين إنه يقول أن مرضه خطير ... المسكين نيازي .

لبست معطفي وركضت الى الشارع .

عندما وصلنا مقهى « دفنن باش » كان مزدحماً جداً فقد جلسوا مجموعات على الطاولات ، ارباع وانصاف الفنانين ، مرشحوا فنانين ، فنانون مخضرمون وعتيقون حتى رؤوس اظافرهم ، كانوا يتصايحون ، يتناقشون ويقرؤون الأشعار ، حاولنا ان نجد مكاناً فارغاً بين تلك المجموعات ولكن محاولاتنا باءت بالفشل ، وهذا يعني اني لن أستطيع ان اقرأ اشعاري إلا أمام كمال حيدر وفهمت من ملامح كمال حيدر الحزينة بأنه لن يستطيع أن يقرأ اشعاره لسواي . وبعد محاولات عديدة استطعنا أن نجد مكاناً في البوفيه لنسند مرافقنا عليه وطلبنا زجاجتي مشروب مع المقبلات .

دلّ كمال حيدر على رجل يجلس خلفنا وحيداً على إحدى الطاولات وقال :

ـ من هذا الرجل ، اتعرفه ؟

لفظه لكلمة «هذا الرجل» يعني أنه لم يشبه لرواد هذا المقهى ، كان الرجل يرتدي ثياباً تليق بأفخم كازينو في المدينة .

قلت : ــ لقد رأيته هنا ثلاث مرات ولكني لا اعرفه .

ــ نعم إنه يجلس على هذه الطاولة بمفرده منذ ثلاث ليالي ، كل ليلة انظر الى هذه المائدة التي أمامه .

فعلاً . ــ لقد وضع الرجل على طاولته من كل الاصناف الموجودة وغير الموجودة في المقهى .

فقال حيدر بيك : ــ لا شك أن هذا الرجل مخبر سري .

فقلت : ــ لا أعتقد .

ــ ولماذا ؟ ــ لو دققت في طاولته لما سألتني ، فلا اعتقد أن الدولة ستخصص كل هذه المائدة لمخبر يلاحق بعض الشعراء .

بعد ذلك نسينا الرجل الجالس على طاولته وبدأنا نقاشنا ، كنت أنتظر بفارغ الصبر كي اقرأ اشعاري الجديدة ولكن كمال حيدر كان صاح كعادته فسبقني بقراءة اشعاره وبعد انتهائه سألني :

كيف وجدتها ؟

فأجبته باختصار كي اقرأ اشعاري بسرعة ــ إنها مدهشة .

ــ بقيت قصيدة واحدة ، إنها أجمل ما كتبت ، وبعد أن قرأها سألني

ــ كيف كانت ولأنني سأسأله بعد قليل عن رأيه بقصائدي قلت :

ــ إنها من روائع الأدب العالمي .

ـ إنها عادية ، سأقرأ لك ما هو أجمل منها اسمع .

وهكذا ، قرأ كل قصائده ، فرغت الكؤوس وانتهت المقبلات التي أمامنا ومع ذلك لم أستطع قراءة أشعاري قال كمال حيدر :

ـ ما هذه المعاناة من قلة النقود ؟ لا نستطيع أن نشرب بعد لأننا لا نملك نقوداً .. يا لهذه الدنيا غير العادلة ، يا لهذا الوطن القاسي ، إثنان من شعرائه الشباب لا يملكون خمساً وعشرين قرشاً كي يشربوا كأسين آخرين من النبيذ .

قلت : ما زلت أملك خمسين قرشاً ، احتفظت بها من أجل طعام الفطور غداً ، سنشرب بها كأسين من النبيذ ، لكن بشرط الا تقرأ أشعارك لأنني أريد أن اقرأ اشعاري .

ـ طبعاً يا أخي ، لقد اتى دورك ، اقرأ يا اخي .

وبعد أن وضعنا كأسين من النبيذ امامنا ، بدات بقراءة اشعاري ، ولكن كمال حيدر لم يتفوه بأية كلمة سألته قائلاً :

كيف وجدتها ؟

ـ إه .... ليست سيئة .

انزعجت كثيراً ، هذا هو كمال حيدر ، حقير جداً ، ويتصرف دائماً بحقارة يقرأ أشعاره في البداية ، ويطلب راي المستمعين ، فيرفعوا أشعاره الى السماء بقولهم « مدهشة ، ابداع عالمي » ظناً منهم انه سيثني على أشعارهم على كل حال ولكنه عندما يسمع اشعار الآخرين ، يتأفف منها بحجة أنها غير جميلة طبعاً نحن لن نستطيع ان نتراجع ونقول له :

« إن أشعارك غير جميلة ولا تساوي عشرة قروش » لأننا أبدينا اعجابنا وانتهى الأمر .

وبعد ان تحدثنا عن الأدب والفن قال كمال حيدر :

ـ انظرا الى هذه القيمة التي تعطيها بلدنا للفنانين ، لا نملك اجرة الباص الذي سيرجعنا الى بيوتنا نهضنا متجهين الى باب مقهى دفنن باش فقطع الرجل الذي يجلس على الطاولة بمفرده طريقنا فجأة وقال :

ـ عذراً يا سادة ، لو رجوتكم فهل تقبلون تشريفي بجلوسكم معي على نفس الطاولة ؟

قلت : ـ أستغفر الله يا سيدي .

قال كمال حيدر :

ـ لا شك انه مخبر سري ، يريد أن ينتزع الكلام من أفواهنا .

قال الرجل : ـ ستحيون الجلسة .

جلسنا على الكرسي التي احضرها النادل ، همس كمال حيدر باذني قائلاً :
ـ لا شك أن هذا الرجل لم يسمع حديثنا بشكل جيد .

كما يبدو ان بداخل كل منا رغبة داخلية بأن يسمعنا مخبر سري كي نقنع انفسنا بأهمية الحديث الذي دار بيننا وبعد سنين فهمت بأنه كان لدينا رغبة لا شعورية بأن تضع الدولة رجلاً مأجوراً كي يلاحقنا وبذلك سيزيد احساسنا بأهمية ما نقوم به ، قلت لكمال حيدر بصوت منخفض :

ـ ولك ، وهل ما نتفوه به له اية اهمية كي تصغي الشرطة له ؟

ـ سترى بعد قليل ، سيأخذنا هذا الرجل الى مديرية الأمن فوراً .

عرف الرجل بنفسه :

ـ محرم أوسكورجو ، متعهد طرقات .

فقال كمال حيدر : لا شك أنك تعرفنا .

فقال محرم بيك .

ـ كلا ، لا اعرفكم .

غضب كمال حيدر كثيراً وقال :

ـ الا تعرفنا ؟ كيف ذلك ؟ الا تعرف بأني كمال حيدر ؟ الشاعر كمال حيدر .

ـ تشرفت بمعرفتك .

ـ معنى ذلك انك لا تعرف كمال حيدر ... الم تسمع باسمه ؟

ـ هل طبعت كتاباً ؟ لم اقراه .

ـ يوجد لدي كتابٌ ولكني لم أطبعه وسيصدر قريباً ، انشر اشعاري في الصحف والمجلات ، لا أشك أنه اقتنع بأن الرجل ليس مخبراً سرياً فقال :

ـ حسناً يا سيدي ، ما دمت لا تعرفنا ، لماذا دعوتنا الى طاولتك؟

فقال المتعهد :

ـ أتيت الى أنقرة منذ أسبوع لانجاز بعض الأعمال . لقد أعجبني هذا المقهى ، فلا أجد إلا الشباب الواعين والفنانين ، إني أحب الشعر كثيراً ، لقد كتبت الشعر عندما كنت شاباً ، وبعد دخولي الى الحياة العملية واصبحت رجل اعمال ابتعدت عن الأدب ، إنني اتحسر دوماً على هذه الأشياء الجميلة لقد استمعت الى حديثكم دون قصد مني كم كان حديثكم رائعاً وجميلاً . كله عن الشعر والفن .

معنى هذا ان الرجل سمع شكوانا عن قلة النقود، وعلم أننا لا نملك خمسين قرشاً ثمن المشروب ولهذا أشفق علينا ودعانا الى طاولته . قال الرجل :

ـ أردت أن أتعرف على شاعرين عن قرب كي أستفيد من أحاديثكم الجميلة .

قال حيدر بيك :

ـ تعرّف ... هيا انظر إلينا وتعرّف ... لترى عيناك شاعرين عن قرب .

حاول رجل الأعمال ان يغطي على قلة الأدب الواضحة التي أبداها كمال حيدر بكلمتين جميلتين ولكن كمال حيدر اكمل وقاحته هذه المرة قائلاً :

ـ يوجد رجال كثر من امثالك يظنون انفسهم شعراء لأنهم كتبوا في شبابهم قصائد شعرية ...

شاعر مغفل ...

قال رجل الأعمال مظهراً ابتسامة مصطنعة :

ـ إنك محق في ذلك .

لو كنت جالساً بجانب كمال حيدر لدعست على قدميه كي ينتبه لكلامه أكثر ولكن ما العمل ؟ ونحن نجلس وجهاً لوجه ؟

قال رجل الأعمال بخصوص الأكل والمشروبات :

ـ ماذا تأمرون ؟! أرجوكم أن تطلبوا ...

فقال كمال حيدر :

ـ أنا لا أشرب مع رجل يحقر الشعر .

ركلت كمال حيدر بقدمي من تحت الطاولة .

قال رجل الأعمال :

ـ أي تحقير ؟ أنا أحترم الشعر كثيراً .

ـ إن محاولة أمثالك لكتابة الشعر تعتبر أكثر تحقيراً له .

ما زال الرجل يحاول أن يحول كلام حيدر الى نوع من المزاح :

ابتسم بصعوبة وقال : ـ والله ما تقوله صحيح .

بدلت كرسيي وجلست على كرسي بجانب كمال حيدر .

نادى الرجل للنادل وسألنا :

ـ أرجوكم اطلبوا ما تريدونه يا سادة .

قلت : ـ أستغفر الله ، لا نريد شيء ، فهذه الطاولة كاملة ولا ينقصها أي شيء .

قال كمال حيدر بعد أن نظر الى المأكولات والمشروبات الموجـودة على الطاولـة :

ـ الا يوجد سمك بالزبدة ؟

ـ لا يوجـد

ـ ليحضروها ... الا يوجد بيض الجدي ؟

ـ لا يوجـد

ـ ما دامت غير موجودة اريدها ...

طلب كل ما خطر بباله من مأكولات ووضعها على الطاولة .

دنوت من اذنه وقلت :

ـ يا كمال حيدر ، لا أرى تصرفك لائقاً .

فهمس بأذني :

ـ إنه قليل الشرف والاخلاق ... ولك بأي حق يقدم لنا كل هذه المأكولات والمشروبات في الوقت الذي لا نملك فيه ثمن تذكرة باص .

لقد سمع الرجل شيئاً من حديثنا الذي دار بيننا مؤخراً فاسود وجهه وتغير لونه . لقد أحضروا كل المأكولات التي طلبها ، فبدأنا بالشرب من جديد كان كمال حيدر يشرب كؤوس النبيذ بجنون .

كان رجل الأعمال يتحدث عن اسفه وآلمه لتركه عالم الشعر ودخوله خضم العمل وعن محبته للشعر بلغة رقيقة ، وفجأة صاح كمال حيدر قائـلاً :

ـ اسكت ولا اا ... لم نأت الى هنا كي نستمع الى حديثك .

ثم التفت إليّ وقال :

ـ هيا ، اسحب واحدة من قصائدك .

فقال رجل الأعمال :

ـ إيه ... لو سمحت ...

فقرات واحداً من قصائدي ثم تبعها كمال حيدر بواحدة من قصائده ونحن نشرب ونشرب دون توقف . انحنى كمال حيدر على الطاولة ومدّ راسه نحو رجل الأعمال وقال :

ـ هيه .. انت .. هل تعرف اراغون ؟

ـ من ؟

ـ اراغون ...

ـ وماذا يعمل هذا الاراغون ؟

ـ هل تعرف رامبو ؟

ـ كلا .

ـ فرلين ؟ ـ من ؟

ـ هل قرات دستوفسكي ؟

ـ اهذا اسم رواية جديدة صدرت حديثاً ؟ لم ارها بعد .

كان كمال حيدر يسأل بكل هدوء .

ـ حسناً ، هل رأيت راسل ؟

ـ أيـن .

ـ لير منتوف ؟ ـ كـلا .

فقال كمال حيدر بنفس اللهجة الهادئة :

ـ وَلك يا حيوان ... ما دمت لا تعرف أراغون ولا رامبو ولـم تسمع بفرلين ولم تقرأ دستوفسكي ولم تسمع بكمال حيدر فبأي حق تدعونا الى طاولتك في الوقت الذي لا نملك فيه ثمن كأسي مشروب ؟

فجأة اكفهر وجه الرجل كوجه البحر الذي هجمت عليه عاصـفة بحرية وتابع كمال حيدر بنفس اللهجة الهادئة :

ـ ولك ما دمت لم تقـرأ شـتاينبك ولا تعرف فييتنام ولا تعرف راسل ولا توماس فلماذا تعيش ؟

ـ ولك هل تحسب نفسك رجلاً ؟ بأي حق تأكل كل هذه المأكولات والمقبلات ؟ كلْ خـرا .... ضغط الرجل على أصابعه بغضب ضغط .... ضـغط وهجم على كمال حيدر وهو يقول :

ـ يا أيتها الكلاب الجائعة ، يا ذوي الجيوب الفارغة السثم الذين تنوحون هنا منذ الصباح لانـه لا يوجـد معكم ثمـن المشـروب الذي ستشربونه ؟ آ آه ؟ ظننتكم رجالاً ودعوتكم الى طاولتي هل فعلت شراً لانني اطعمتكم وأشربتكم ؟ آ آه ؟ يا ثرثريون ...

تدخلت محاولاً تهدئة الرجل فقلت :

ـ أرجوك يا سيدي لا تؤاخذه إنه ثمل . . .

ولكن كمال حيدر استمر بلهجته الهادئة :

ـ لا تعرف هذا ولا تسمع بذاك ؟

ـ أيها المتطفل الخنزير ، بأي حق تكسب هذه النقود .

انفجر رجل الأعمال بعد أن كاد يهدأ .

ـ ولك لعنك الله هل عادت الحياة لبراغيثك بعد أن شبعت أيها الثرثري أيها الكلب الجائع الحمد لله أني هجرت الشعر منذ زمن وإلا لأصبحت ثرثرياً مثلكم الآن فهمت لماذا لا تعطي حكومتنا أهمية لأمثالكم ويتركونكم جائعين إذا هذا هو السبب .

لو صمت كمال حيدر لهدأ الرجل لكنه لم يصمت فهجم الرجل على كمال حيدر من فوق الطاولة .... أمسكه من ياقة معطفه وسحبه الى الخـارج .

لم يستطع كمال حيدر الإفلات من يدي الرجل الذي راح يضربه وكمال يئن تحت ضرباته قائلا :

ـ ولك خنزير بأي حق تدعونا الى طاولتك ؟ نحن شعراء ولا اااا يا حيوان لا تعرف أراغون ولم تسمع بفرلين أليس كذلك ؟

ـ خذ هذه لأرغوان . . . خذ هذه أيضاً لـ . . . لا أعرف أسمه . . . خذ هذه من أجله خذ أيضاً لبقية الذين ذكرتهم .

سقط رجل الأعمال الضخم على الأرض في أسفل الجدار قائلا :

ـ لقد تعبت و . . سأموت . . . يا إلهي .... قلبي .

أما كمال حيدر فقد سقط بجانب الجدار الآخر ولم يستطيعا الحركة بعد ذلك ، فبدءا بقذف الشتائم .

ـ يا عديم الأخلاق ، لم تسمع بعد باسم لارمنتوف .

ـ أيها الكلب الجائع ... ابن الشوارع .

ـ ليس من حق أي شخص لا يعرف يوشكين أن يدعوني لكأس شراب .

ـ هل أصبحت رجلا عندما امتلأت معدتك ؟

لم يكن بامكانهما الصراخ أكثر من ذلك ثم بدأ يتراشقان الحصى الصغيرة الموجودة حول كل منهما وبعد أن تعبا من حرب الحصى هذه بصق كمال حيدر من مكانه على رجل الأعمال :

ـ تفــو ....

ـ فرد رجل الأعمال ... تفو .

لم يعد باستطاعتهما عمل أي شيء سوى البصاق على بعضهما وبعد فترة وجيزة انقطعت انفاسهما فسقط كمال حيدر وأما رجل الأعمال فقد اغمي عليه أو لعله قد مات .

قام الأصدقاء الذين كانوا في الحانة لحمل كمال حيدر الى سيارة اجرة ونقلوه الى بيته وبقي رجل الأعمال في مكانه فلم يلمسه أحد على الأغلب اخذه عمال الحانة الى الداخل .

لقد مرت أعوام على هذه الحادثة الا تتشوق لمعرفة نهاية الحادثة ؟! قبل فترة كنا نتناول مع بعض الأصدقاء طعام العشاء في / كاربيج / عندما اتى احد الرجال الى جانبي وقال :

ـ هل عرفتني ؟

وعندما روى الحادثة تذكرت أنه هو رجـل الأعمال الذي جرت معه الحادثة قال : ـ لقد نسيت اسمك .

قلت : ـ حسن .

ـ وما اسم صديقك الذي تشاجر معي ؟

ـ كمال حيدر .

قال رجل الأعمال :

ـ أتعلم إن صديقك كان محقاً وقتئذٍ ، وأنا لم أكن على حق .

صمت قليلا ثم تابع :

ـ من المؤكد انه كان على حق ... إنني اقبل أن ابدل موقعي بكل ما أملك مع ذاك الشاعر ، ولكن أمراً كهذا لا يباع ، الله أعلم كم كتاباً صدر له حتى الآن ومع ذلك لم أرَ أياً منها حتى الأسماء التي ذكرها في تلك الليلة الى الآن لم أسمع بها .

وبعد فترة صمت ، تابع قائلاً :

ـ ماذا يفعل الآن ، كمال حيدر بيك ؟

ـ الآن ؟ ... إنه موظف في / الإدارة المحلية / إنه يعمل رئيساً في إحدى دوائر الطرق العامة .

ـ رائع ، هل صدر له كتاب ما ؟

ـ لا أعلم ... أعتقد انه صدر له في تلك الأيام كتابان أو أكثر .

ـ ممتاز ... وانت ماذا تعمل ؟

ـ انا .. أنا دخلت الى أعمال كثيرة ولكني لم أفلح والآن أعمل مع متعهد .

ـ ممتاز .

في البداية مسحت وجه رجل الأعمال مسحة فرح ثم قال بحزن :

ـ وأنا أيضاً كتبت قليلا من الشعر في شبابي .

* * *

هـنـا البليـد

كنت اشعر بملل فظيع عندما خرجت من البيت . عندما اكون متشائماً أشعر بأنني قريب من الأرض ، لا بل متحداً بها ، أصغر ... أصغر ... تقصر قامتي أكثر مما هي عليه . يضغط الهواء على جسدي من الأعلى ويجذبني التراب الى الأسفل .

كنت اعبر زقاقنا عندما جاءني رجلٌ وقال :

ـ يا سيدي ، أرجو المعذرة ، ألست حسن يازْمَنْ .؟

ـ نعـم .

ضغط على يدي وقال :

تشرفت بمعرفتك يا سيدي ، إن عائلتي مدمنة على قراءة مقالاتك . آه يا سيدي ، يا لروعة ما تكتب ، يا لعَظَمةِ مقالاتك .

صار جسدي يتضخم كلما تكلم أكثر وكلما زاد بمدحي اكثر ، علماً أنني كنت منذ قليل كإطار سيارة فارغاً من الهواء ، طبعاً ، تصنعت التواضع كما يفعل كل كاتب مشهور .

مشيت قليلاً ، فسمعت رجلاً يقول لإمراة تمشي بجانبه وهو يشير نحـوي :

ـ شيشت .. هيه ... هيـه ... انظري ... حسـن يازْمَن قـادم ....

إن قامتي تطول باستمرار ، لقد ادركت طول قامتي من خلال لوحات المحلات التجارية التي أصبحت تحت مستوى راسي . وصلت الى موقف الباص ، قال رجلٌ يقف في الموقف :

ـ بينما كنت أبحث عنك في السماء وجدتك على الأرض ، إن لم أخطأ أنت حسن يازمَن أليس كذلك ؟.

ومن جديد قلت بتواضع مصطنع :

ـ نعم .

ـ يا إلهي ، سلمت يداك ، يا لجمال ما تكتب ، أنا أقرأ مقالاتك منذ خمسةٍ وعشرين عاماً .

ـ أدامك الله .

كم كان هذا الرجل قصيراً ... كم كان قزماً . كنت أنظر إليه من الأعـلى .

ـ إنني أقرأ كتاباتك بإستمرار ، منذ أول مقالة وحتى الآن ؛ أقرأ كل شيء أجده لك في الصحف والمجلات .

ـ شكراً جزيلاً .

ضغط الرجل على يدي باحترام وذهب .

أشعر ، عندما أكون متفائلاً بقرب راسي من السحاب .

جاء الباص ، صعدت إليه ، رفع أحد الركاب قبعته باحترام وسلم قـائلاً :

ـ إنني من المعجبين بك .

خجلت كثيراً ، أقصد ، تصنعت الخجل وقلت :

ـ أستغفر الله يا سيدي .

لا أعرف لماذا يصنعون الباصات ضيقة بهذا الشكل وسقوفها منخفضة جداً إنها لا تسعني ، يضرب جسدي هنا وهناك ...

تابع الرجل كلامه :

ـ وأبي أيضاً مـن المعجبين بكتاباتك ، كـل العائلة تقرأ كتاباتك يا حسن بيك .

ـ إنك تبالغ في مدحي يا سيدي .

وقال مسافر آخر :

ـ وانا ايضاً معجب بك منذ زمن يا سيدي حسن بيك . وأحب أن أتعرف عليك اكثر ، وقد شاءت الصدف أن أراك هنا ، لا اعرف كيف سأعبر عن اعجابي بك .

كاد رأسي أن يخرج من سقف الباص ، انا لا اعرف لماذا يصنعون سقف الباصات منخفضة الى هذا الحد . الا يعرفون بأني سوف اركب تلك الباصات ؟!.

كنت أنوي الذهاب الى « الكاضي كوي » ولكني نزلت في أحد المواقف لأن الباص كان ضيقاً جداً ، وبدات انتظر السرفيس .

ـ يا سيدي ، لست مخطئاً إن قلت بأنك حسن يازمَن أليس كذلك ؟!.

ـ نعم يا سيدي ، لستَ مخطئاً .

ـ آه يا سيدي ...

كبر حجمي اكثر واكثر .

ـ سلمت يداك يا حسن بيك ، إنك تكتب بشكل رائع .

استطالت قامتي أكثر وأكثر .

صعدت الى السرفيس وجئت الى الميناء ، ولكن ماذا ُفعلوا بالميناء ؟.

لقد صغَّروا حجمه كثيراً ، إنه ضيق للغاية .

ـ انظروا ... انظروا ... هل رأيتم حسن يازمَن ؟!.

ـ أهذا هو ؟ يا إلهي ...

مددت يدي الى شفتي العليا ، احزروا لماذا ؟ كي أفتِّل بشاربيَّ ... تفووو ... يا إلهي ليس لديَّ شوارب ، الرجل الحقيقي هو من يرخي شاربيه ، وفي مواقف كهذه يجلس ويفتِّل بهما ... سيكون مشروع رخيُ شاربيَّ من أولى مشاريعي ، لأن الشوارب تنفع في مواقف كهذه .

ـ شيشت ... انظر مَنْ هنا ؟ إنه حسن يازمن .

وبدون أن أدري ذهبت يدي الى شاربيَّ وكأنهما موجودان ، آه .. لو كنت أملك شوارب كي أفتل بهما . إنهم يسخرون قائلين : « والقطة أيضاً تملك شوارب » .. ولكنها لا تستطيع أن تفتِّل بهما .

اقتربت الباخرة من الساحل ، حسناً ولكن كيف سأصعد عليها .؟

إنها ضيقة جداً ولن تسعني ... أتريدني أن أُغرق الباخرة ؟

فتِح باب الميناء ، انحنيت كثيراً كي لا يصطدم رأسي بأعلى بـــاب الميناء وهكذا استطعت المرور مع أني أعلم أنني حتى لو قفزت فلن ألامس أعلى الباب بيدي .

كان الميناء يهتز بقوة من تأثير ثقلي ، وعندما وضعت رجلي في الباخرة اهتزت يميناً ويساراً . فذهبت مباشرة الى منتصف الباخرة ، وبهذا حافظت على توازنها ولولا ذلك لكان من المؤكد أن الباخرة ستنقلب .

يا سيدي ، يجب أن يخصصوا باخرة خاصة للكتاب المشهورين أمثالي .

ما هذا يا أخي ؟!

كل شخص يشير إليّ ، كم هو صعب ان يكون الإنسان مشهوراً . لا يمكن أن يرتاح أبداً ....

عندما دخلت الى صالون الدرجة الممتازة انخفضت مؤخرة الباخرة، ولم يفهم أحد سواي سبب انخفاض مؤخرة الباخرة ، جلست على أحد المقاعد بصعوبة ، إنهم صنعوها ضيقة جداً لدرجة أنها لا تتسع لشخص واحد .

تحركت الباخرة ، كل الركاب ينظرون إليّ ، طبعاً ، ولِمَ لا ينظرون ؟ ! فكم حسن يا زمَن موجود في هذه الدنيا ؟ ! . فليمتّعوا أنظارهم برؤية حسن يا زمَن . مددت يدي الى شفتي العليا ، تفوووه ....

يجب أن يكون لي شاربان في موقف كهذا ، استدرت الى الخلف ونظرت من طرف عيني .... أووو .... مجموعة كبيرة من الرجال والنساء ، أشار أحد الرجال نحوي :

ـ انظروا ... انظروا ... إنه حسن يا زمَن .

فسأله الذين حوله :

ـ أيْ واحد ؟

كدت اقفز قائلاً « أنا ، أنا حسن يا زمَن » ولكني تمالكي نفسي .

ــ إنه يجلس أمامنا .

ــ أ اا! .. أهـذا هو ؟

إنني مستغرب كيف لا تفرق هذه البلاد ، فإلى الآن يوجد أناس لا يعرفون حسن يا زمَن العظيم ، يا إلهي ... استدرت أكثر كي يروني بشكل جيد . صدقوني إذا قلت أنني لم أكن أستدير بملء إرادتي ، بل بدون أن أشعر . كأن جسمي قد تضخم بواسطة منفاخ هواء .

ــ إنه هو ..

ــ لا يا أخي ، لا يمكن أن يكون هو .

ــ أقسم أنه هو .

ــ لا يمكن يا أخي ... إن هذا واحد من المتسكعين .

قالت الجملة الأخيرة إحدى النساء ، ... ولِكِ يا أيتها العاهرة وماذا في شكلي يدل على أنني أحد المتسكعين .

وبدؤوا بعد ذلك بنقاش حاد . واحد من المجموعة كلها عرفني بينما زعم الآخرون بأنني لست حسن يا زمَن .

ــ إنه حسن يا زمن بشحمه ولحمه .

ــ يا أخي لا يمكن أن يكون حسن يا زمَن .

ــ ولماذا ؟!

ـ انظر الى منظرة .. إنه لا يشبه البشر ... إنه كائن غريب .

أوف ... ما هذا الحر الذي في الباخرة .. ؟ ! ..

ـ أقسم أنه هو ..

ـ هذا البليد ؟! لا يمكن ... إن هذا الموبوء عاجز عن ربط كيلوته.

تفوه ... لعنكم الله .... لماذا يصنعون مقاعد الباخرة واسعة الى هذا الحد ؟ ! .

ـ إذاً ، هل تقصد أن هذا الرجل هو من يكتب تلك المقالات الرائعـة ؟ .

ـ طبعـاً .

ـ هيا ... لا تقل هذا ، انظر الى منظرة ، إنه أحد المتسكعين... ثم كيف لشخص مثله أن يكتب تلك الكتابات الرائعة ، لا يمكن يا أخي لا يمكن أن يكون هذا هو حسن يا زمن .

ـ يا أخي ، أنا أعرفه تماماً ، إنه هو بذاتـه .

ـ لا شك بأنك تشبّهه ، ومع ذلك فلا يمكن أن تشبّـه مخلوقاً كهذا لحسن يا زمَن ، يا له من مخلوق عجيب .

غطست قدر استطاعتي في المقعد كي لا يروني ، يا لكبر الباخرة ويا لوسع الصالون .

ـ قولوا ما شئتم ، ولكني مُصِرّ على أن هذا الرجل هو حسن يا زمن .

ـ لا تقل رجلاً ... ، إنه مزيج عجيب ، انظر إليه ، لا يستطيع ان يجلس مثل البشر ، أيستطيع مخلوق كهذا أن يكتب تلك الروائع ؟ .

ـ إنه يستطيع يا أخي ، يستطيع .

ـ لا يستطيع ، ومن أين له المقدرة على الكتابة ، إنه متسكع بكل معنى الكلمة ، يا له من بليد .... لا أصدق أبداً بأنه يستطيع أن يكتب مقـالاً .

ـ لقد قلت كل ما أراه ، لا يوجد أيـة ملامح تدلُّ على الذكاء في مُحيَّاه .

ـ لماذا لا تصدقوا أنه هو ؟ ! أقول لكم إني أعرفه جيداً . أكون عديم الشرف إن لم يكن هو بذاته .

ـ ولَكْ ماذا تقول ؟ أيمكن أن يكون هذا الحيوان هو حسـن يا زمن ؟ معنى هذا أن حيواناً كهذا هو من يكتب تلك المقالات الرائعة .

أأذهب من هنا ؟ ولكن في حال مغادرتي سيصبح الوضع أسوأ بكثير ، إذ أنهم سيحدقون بي أكثر ، لماذا خرجت من البيت الى الشارع ؟ إنني أصغر وأصغر ويتضاءل حجمي أكثر أكثر ، أكاد أن لا أرى ... آه لو تقترب الباخرة من الشاطىء كي أقفز منها . وأذهب بعد ذلك الى البيت .

ـ تقول إنه حسن يا زمَن ها ... ؟ .. قه .. قه .. قه ... لم يكن في نيتي الضحك ..

ـ أقول إنه حسن يا زمن فلتصدقوا إن شئتم أو لا تصدقوا ..

ـ ولك ، رجلٌ كهذا لا يَحق له أن يسكب ماءً على يدي حسن يا زمن .

ـ ضع هذا الرجل في الســاحة العامة واعرضه على الجماهير ليتفرجوا عليه ويستمتعوا بمظهره .

ـ ولكن يا سيدي ، ايــة مقالات رائعة تلك التي يكتبها حسن يا زمن ، إنها تدل على أنه شعلة من الذكاء ، انظر الى هذا الرجل إنه ينام واقفــاً .

سقطت السيكارة المشتعلة من يدي ، فحاولت ان أشعل سيكارة اخرى وعندما امسكت عود الثقاب بيدي المرتجفة سقط على جسدي ، آه يا إلهي .. لو نقترب قليلاً من الشاطىء .

ـ هل أنتم مصرون على أن هذا الرجل ليس حسن يا زمن ؟ .

ـ طبعاً ، ليس هو .

ـ حسن ، وكيف عرفتم ذلك ؟ هل لكم به سابق معرفه ؟

ـ أنا لا أعرفه ، ولكن لا يمكن أن يكون هو هذا الرجل . فكيف لحقير كهذا أن يكتب تلك الكتابات الرائعة والمقالات الجريئة .

ـ إذا كان العقل موجوداً فالتفكير ايضاً يكون موجوداً ... انظر إليــه انظر ... أيعقل أن يكون هــذا هو حسن يازمن ، لا تضحكني أرجوك ... واحد" فقط ، من مجموعة مؤلفة من أكثر من عشرة أشخاص يقول بأنني حسن يا زمن ، والآخرون يدعون عكس ذلك .

ـ حسن" ، أتراهنون على ذلك ؟

ـ نراهن على ما تريد .

ـ أتراهنون بعشر ليرات ؟

ـ نعم .

ـ ادفع خمسين ليرة إن كان هذا الخ ... هو حسن يا زمن ، سأخسر خمسين ليرة .

ـ وأنا أراهن على غداء ...

ـ وأنا أدفع مئة ليرة ...

ـ حسن ، أقبل بذلك ...

ـ جيد ، ولكن كيف سنعرف إن كان هذا الموبوء هو حسن يا زمن أم لا ؟!

فقال الشاب الذي يدعي بأنني حسن يا زمن :

ـ لنذهب إليه ونسأله .

ـ حسن ، لنسأله .

ـ أنا لا أصدقه إن قال « أنا حسن يا زمن » فقد يفخر بذلك ويدعيه .

ـ ثم يوجد أكثر من شخص أسمه حسن وقد تتشابه الألقاب .

ـ سنسأله إن كان كاتباً أم لا ، ولنسأله إن كان يكتب تلك المقالات أم لا ، ألديكم اعتراض ؟!.

ـ حسن لنسأله .

ايواه ... ماذا سيحدث الآن ؟ يا ليتني ما كنت حسن يا زَمن ، ويا ليتني ما كتبت تلك المقالات .

نهضوا واتجهوا نحوي ، إنني اسمع وقع خطاهم ، قفزت بخطوة واحدة ... يا إلهي ... الشاطيء ، الميناء ، الباخرة ، نعم الباخرة تقترب من الشاطيء واختلطت مع الزحام ، صاروا يصرخون خلفي :

ـ يا سيد .. يا سيد ...

ـ دقيقة من فضلك ...

ـ حسن بيـك .

ولكن هيهات ... من يسمعهم ... وأنا أركض بين الزحام .

ـ هيه ... انت .. يا سيد ...

كان بين الشاطىء والباخرة أربعة أمتـار ، على ما أعتقد ، حين قفزت . لا بل طرتُ ... طرتُ ولكني لأحطَّ في حضنِ موظف البلدية الذي يعمل في الميناء .

ـ تعال قليلاً ..

دخلنا الى غرفة البلدية ...

ـ ستدفع عشرين ليرة لأنك قفزت من الباخرة قبل وصولها الى الشاطىء . مباشرة قدمت له ورقتين من فئه العشر ليرات ، وحاولت الهرب ، ولكنه قال :

ـ انتظر قليلاً من فضلك ، أريد أن أعطيك وصلاً ، ما اسمك ؟

نظرت الى عيني موظف البلدية ، نظرت بشكل جيد ..

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمي ؟!

ـ نعم اسمك

ـ اسمي أنا ؟! ـ طبعاً اسمك أنت . ـ أنا اسمي ... علي .

ـ والكنية ؟! . ـ ك ... كذ .. ت..... تي ... كنيتي .. دالتبـــان .

أخذت الوصـــل وخـــرجت ، سمعت حديث موظف البلديـــة : « يا إلهي ، إنه يشبه حسن يا زمن لحد كبير » .

وهكذا .. عندما اكون متشائماً الى هذا الحد ، أشعر بأنني قريب من الأرض بل أشعر بأنني متحد بها ، يضغط الهواء من فوقي ويجذبني التراب من الأسفل ومشيت صغيراً .... صغيراً ...

توفيق افندي ابو الشوارب

ـ قلت له عندما كنا نفترق .

ـ أقدم تحياتي لزوجتك الموقرة .

إنه رجل أخلاقي وذو تربية حسنة ، وما أن سمع ما قلته حتى عبس وبصق بغضب وكأنه شعر بمرارة شيء ما داخل فمه . ودهشتُ حين قال :

ـ اية زوجة موقرة ... اية زوجة ؟

كررت قائلاً :

ـ زوجتك ...

فقال بإصرار :

ـ ليس لدي زوجة ...

لو طلب مني نموذج للعائلة المثالية ، لاشرت دون ادنى تردد الى هذه العائلة . إذ انهما يحترمان بعضهما ويحبان بعضهما كثيراً ، فلقد اسسّا عشاً زوجياً ، اجزم بنسبة تسعة وتسعين وتسعة بالعشرة انه لم يحصل بينهما اية مشاجرة او ملاسنة او حرب او ضرب او اي شيء من هذا القبيل هكذا عرفنا هذه العائلة .

يقال بأن الأولاد هم الذين يربطون الرجل بزوجته ، ويحمون العائلة من الشجار والانفصال . غير أن هذين الزوجين ليس لديهما أولاداً ، ومع ذلك فهما سعيدان ويعتبران مثالاً للزوجين المتحابين . هذه المعلومات

إما رأيناها بأعيينا . أو سـ سمعناها من الجيران ، ولهذا فوجئت بجوابه حين قال « ليس لي زوجة » فقلت :

ـ اقصد زوجتك الموقرة .

ـ ليس لدي لا زوجة موقرة ولا زوجة غير موقرة . أم انك لم تسمع بما حصل بيننا ؟

ـ كلا لم اسمع بأي شيء .

ـ يا إلهي ، لم يبق أحد لم يسمع بما حدث ... لقد خانتي زوجتي التي تقول بأنها « موقرة » ... وفوق ذلك فقد خانتني مع رجل ذو شوارب وسخة .

صمت لأنني لم اعرف بماذا سأجيبه :

قـال :

ـ الى اين انت ذاهب ؟

ـ لا انوي الذهاب الى مكان محدد ، رايت الطقس جميلاً ، فقلت سأتمشى قليلاً ، وفي العودة سآخذ رئتين لقطتي من عند اللحام .

ـ وانا ايضـاً لا يوجـد لدي أي عمل مهم ... هيـا لنتمشى ونتحدث ، لا شك بأن الله ارسلك إليّ لأنني بحاجةٍ لرجل اشكي له همومي .

ومشينا ...

قـال :

لقد افترقنا ، خرجت من البيت وقريباً ستصبح قضيتنا في المحكمة من أجل إتمام معاملة الطلاق .

عندما كنا نمشي في الطريق ، كان يقف عند الكلام الذي يراه مهماً . وكان يتحدث بشكل مستمر ، أحببت أن أسأله عن سبب الطلاق كي أشعر بأني تكلمت معه ، فقال وكأنه يعرفني منذ زمن :

ـ إن توفيق افندي كان السبب في كل ماحدث .

ـ أي توفيق افندي ؟

ـ إنه توفيق افندي ابو الشوارب الا تعرفه ؟ توفيق افندي ابو الشوارب !!!

ـ ومن يكون توفيق افندي ابو الشوارب ؟ لم اعرفه .

ـ وكيف لاتعرفه ياروحي ؟! إنك تعرفه ... تعرفه وهل يوجد شخص في هذا البلد لايعرفه ؟

ـ أقسم بأني لم أتذكره ...

ـ أم انه لايدخل إلى بيتك ؟!!!

ـ مـن ؟

ـ ومن سيكون ؟! توفيق أفندي أبو الشوارب طبعاً .

لا شك بأن هذا الرجل بدأ يخرّف .

فلقت له :

ـ لا ياسيدي وبأية صفة سيدخل إلى بيتي ؟ ولماذا سيدخل إلى بيتي ؟

ـ قال إيكل ببرودة أعصاب :

ـ إنه يدخل .. يدخل ، لايوجد بيت لم يدخل إليه ، إنه يدخل إلى كل البيوت .

ازداد إصراري أكثر ...

ـ إنه لايدخل إلى بيتي ... ولماذا سيدخل رجلٌ لاأعرفه إلى بيتي ؟!

فقال بسخرية :

ـ تقول بأن توفيق افندي أبو الشوارب لا يدخل ها ؟ يا لك من رجل ساذج فصرخت بصوتٍ عالٍ :

ـ لا يمكن أن يدخل بيتي لا ابو شوارب ولا غيره ، ليس لأي توفيق افندي اي عمل في بيتي .

ـ إنه يدخل ... يدخل ... هذا الرجل .. يدخل ياسيدي ، كنت اعتقد كما تعتقد انت واقول انه لا يدخل إلى بيتي حتى خانتني زوجتي .. فصرخت في وجهها « لن اسمح بعد اليوم التوفيق أفندي أبو الشوارب أن يتخطى عتبة بيتي .. » ومع ذلك فقد كانت زوجتي تدخله سراً إلى بيتي .

ـ كانت تدخل من ؟

ـ ومن سيكون ياروحي ؟ كانت تدخل توفيق افندي أبو الشوارب.

ما اعلمه هو أن زوجته شريفة جداً وتحب بيتها وزوجها كثيراً ولم تكن سيئة السمعة . ولم تكن إمراة لعوباً . حينئذ خطرت على ذهني

فكرة وهي أن بعض النساء يعانين من حالة نكوص إلى سنين ماضية ، فكم امرأة عاشت مراهقتها بعد الاربعين ، وكما يبدو وأن زوجته المسكينة قد عانت نفس الحالة .

قال :

ـ إن زوجتك تدخل توفيق أفندي ابو الشوارب إلى بيتك ولكن في الخفاء ودون أن تعلمك بذلك .

يا له من سافل ... إنه يشتمني بكل وقاحة ... حقيقة إن لإبن آدم أطواراً غريبة ، فعندما يصاب بمصيبة يتمنى أن يصاب بها كل شخص ، ويتمنى أن تنشر هذه المصيبة على كل الناس كي لا يشمت أحدٌ بـه .

فقلت له بعصبية :

ـ ارجوك يا سيد .....

ومع ذلك فقد اكون مخطئاً إذا ما قلت بأن الشك لم يملأ قلبي .

ما هذا الرجل المسمى توفيق افندي ابو الشوارب ؟ أهو دنجوان عصره ؟! قال :

ـ حسناً ، لا تغضب ، إن كان توفيق أفندي لا يدخل الى بيتك كما تدعي فكيف تغسلون ملابسكم ؟!! إذا غاب توفيق افندي فلن تغسل الملابس . آه... كأنني فهمت... فلقد تخلت معظم البيوت عن الخادمات وأصبحت تعتمد في أعمالها المنزلية على رجل يعمل على خدمتها. ويعني كلامه أنهم قد أحضروا إلى بيتهم رجلاً يدعى توفيق افندي أبو الشوارب وهذا الرجل يقوم بأعمال الغسيل والجلي والطهي ، لا شك انه شاب جميلٌ وسيم وأنيق ، ومع ذلك فلا اعتقد أن المراة قد عشقته ولكنها

الغيرة . فلا شك بأن هذا الرجل قد شعر بالغيرة من توفيق افندي ابو الشوارب .

ـ هل توفيق أفندي ابو الشوارب شاب ؟

وبعد فترة من التفكير قال :

ـ إذا كان من مواليد ١٨٨٠ فكم يكون عمره ؟

ـ اربعة وثمانون ... ماذا تقول ؟!

ـ لماذا دهشت ؟ هل هناك شيء يدعو للدهشة ؟ لقد علمت تاريخ ولادته لأنني رأيت صورته في كل مكان . فقد كان مكتوباً في اسفل الصورة . ولكني انا المخطىء على كل حال ، يجب الاّ اكون قد سمحت له بالدخول الى بيتي ، فكل الرجال الذين تخونهم زوجاتهم يتصرفون بنفس الطريقة المغفلة . سأروي لك القصة من بدايتها .

ـ قبل ثلاث او اربع سنين ، وعندما كنت انزل من الباخرة أوقفني طفلٌ في الميناء واعطاني ورقة اعلان بحجم الكف ... كان مرسوماً عليها صورة رجلٌ ... فلقد كانت صورة توفيق أفندي ابو الشوارب .

بهذه الطريقة تعرفت عليه لأول مرّة . وعندما صعدت الى الباص ونظرت الى الورقة وقرات ما كان مكتوباً عليها : « إن توفيق افندي ابو الشوارب يقدم خدماته منذ مئة سنة لربات البيوت ، ماء توفيق أفندي أبو الشوارب للغسيل يجعل الغسيل ناصع البياض ولا يترك أي اثر ، تشعر البيوت التي لا يدخلها توفيق أفندي ابو الشوارب بشيء ما ينقصها . أيتها السيدات وانتم ايضاً استعملوا ماء توفيق افندي ابو الشوارب للغسيل » . كانت الورقة مليئة بكتابات كهذه نظرت الى صورة الرجل ، كان يلبس عمامة على رأسه ، وقد أطال شاربيه ذوي الأطراف الحادة المدببة على جانبي وجهه ، وكادا أن يخرجا من طرفي الورقة .

ضغطت على الورقة بأصابعي ورميتها ، ونسيت توفيق أفندي أبو الشوارب . وفي المساء وعندما كنت أتناول طعام العشاء كنت أسمع المذياع فسمعت اعلان توفيق أفندي أبوا الشوارب من المذياع :

«لا يمكن لربة المنزل أن تنجز عملاً بلا توفيق أفندي أبو الشوارب، سيدتي إن توفيق أفندي أبو الشوارب في خدمتك دوماً » . وفي الصباح كنا نتناول طعام الفطور حين دق الباب ، فتحت الخادمة وأحضرت ورقة وقالت :

ـ أحد الرجال أعطاني هذه الورقة .

أخذت الورقة من يدها ونظرت إليها ومن جديد كان إعلان توفيق أفندي أبو الشوارب « البيت الذي لا تدخله الشمس يدخله الطبيب والبيت الذي يدخله توفيق أفندي أبو الشوارب لا يدخله الطبيب » . ومن جديد كانت صورة الرجل المعمم أبو الشوارب .

خرجت الى الشارع متوجهاً الى عملي ، فرايت صورة رجل بالألوان ملصقة في موقف الباص وكان حجم هذا الرجل أكبر من حجم الرجل العادي بثلاثة أو أربعة أضعاف ، يا إلهي ، إنني أعرف هذا الرجل ، ولكن من يكون ؟ هذا الرجل المعمم ابو الشوارب ليس غريباً عني ، اقتربت أكثر ، وقرات الكتابة في أسفل الصورة « توفيق أفندي أبو الشوارب لكل بيت ، ماء توفيق أفندي أبو الشوارب للغسيل لا يترك أثراً ، توفيق أفندي ابو الشوارب ، ينظف ملابس الحرير الداخلية دون أن يجعدها » .

صعدت الى الباص ، فرايت إعلانات توفيق أفندي أبو الشوارب ملصقة على زجاج الباص « لا يوجد بلاد مثل بغداد ، ولا خيار مثل خيار شنغال كويو ، ولا حبايب مثل توفيق أفندي أبو الشوارب » ركبت الباخرة ... الإعلانات ذاتها من جديد .

وعندما دخلت الى الدائرة ، قلت لأنظر الى الصحيفـة ، فرأيت صور هـذا الرجل بشاربيه الحادين تملأ صفحات الإعلانات « المـرأة التي تجرب توفيق أفندي أبو الشوارب مرّة تستعمله دومـاً ، وأنتـم أيضاً إذا جربتوه مرّة فلن تتخلوا عنه أبداً » .

مضت أيام بأكملها ، وكلما نظرت الى شيء أرى توفيق أفندي أبو الشوارب ، في البيوت ، في المذياع ، على الجدران ، في الترامواي ، في الباص ... لم يكن يفضني هذا الرجل في تلك الأيام ، لأنني اعتدت عليه لدرجة أني ظننته أحد أقاربي أو شيء من هذا القبيل .

في هذه الأثناء يا سيدي ، بدؤوا بوضع هدايا داخل عبوات توفيق أفندي أبو الشوارب وذلك كي تزداد مبيعاتهم ، فدخل توفيق أفندي الى كل بيت والى كل غرفة. فقد لصقوا على كل عبوة بطاقة وكلما جمعت عشرين بطاقة ترسلها إليهم فتشترك بالمســابقة ، ويوزعون للرابحين ، البيوت والسيارات والبرادات والغسالات وأشياء كثيرة ، هل تعلم ماذا فعلت أنا ؟! قلت لزوجتي « وأنت يا حبيبتي جربي توفيق أفندي أبو الشوارب ، فربما نربح شيئاً ما » .

نعم أنا الذي جلبت هذه المصيبة الى نفسي . ولولا ذلك لما فكرت زوجتي بتوفيق افندي ولا بشواربه .

قالت زوجتي « عندما تعود الى البيت في المساء ، أحضـر معـك عبوة ، فأنا لن أخرج هذا اليوم من البيت » .

فأحضرت هذا الرجل الى بيتي ، عندما كنت عائداً الـى البيت في المساء مررت على البقالية التي في الزاوية . وقلت للبقال « أعطني توفيق أفندي أبو الشوارب » فسألني البقال « كم عبـوة تريـد ؟ » فقلت : « وكم عبوة سآخذ ؟! واحدة طبعاً » فقال « يا ســيدي ، لقد هجمت النساء على توفيق أفندي أبو الشوارب وكل واحدة تأخذ خمس أو ست

عبوات على الأقل، ولهذا سألتك كم عبوة تريد، ومن جهة أخرى لا يتوفر توفيق أفندي أبو الشوارب دائماً ، ... كما أن زوجتي معجبة جداً بتوفيق أفندي أبو الشوارب » فقلت : « إذاً أعطني أربع عبوات » فقال: « لا يوجد سوى عبوتين » فأخذت العبوتين وذهبت الى البيت . ومن يومها يا سيدي ساءت أحوال بيتي وضرب نظامه ولم يبق له اية لذة ، أدخل الى الحمام ، فأجد صورة توفيق أفندي أبو الشوارب المرسومة على العبوات مصفوفة وموضوعة على حافة النافذة ، ادخل الى المطبخ فأجد عشر عبوات وأحياناً أجد عشرين صورة لأبو الشوارب هذا .

تمر الأيام وبمرورها تزداد صور توفيق أفندي أبو الشوارب في البيت قلت لزوجتي « ما هذا ؟ لو كنا نسكن في مغسل تابع لقطعة عسكرية لما احتجنا لكل هذا العدد الضخم من توفيق أفندي أبو الشوارب ، لماذا تشترين كل هذا المقدار ؟ » فقالت « سنحتاج له في يوم ما ، كما أنني احتفظ بالبطاقات التي تكون ملصقة عليه » في السحب الأول أرسلت زوجتي عشرين بطاقة ولكنها لم تربح شيئاً ، مما زاد في شوقها للهدية أكثر فاشترت عبوات جديدة كي تشترك في السحب الثاني، امتلأ الحمام والمرحاض والمطبخ وبعد ذلك هجم توفيق أفندي أبو الشوارب الى الصالون والغرف ، ولم يعد باستطاعتنا التجول في البيت من كثرة توفيق أفندي أبو الشوارب ، بدأ غضبي يزداد شيئاً فشيئاً ، لأن توفيق أفندي أبو الشوارب لم يترك لي مكاناً لأجلس فيه . عندما أمدُّ يدي الى طاولة الطعام .

ـ أو وْ و ... لقد أسقطت توفيق أفندي أبو الشوارب .

عندما أمد يدي الى المكتبة لأتناول كتاباً ، تصرخ زوجتي :

ـ آ آ آ آ ... لقد كسرت توفيق أفندي أبو الشوارب .

أنا لا أريد أن أمدح نفسي ، ومع ذلك فأنا أعتبر نفسي إنساناً أخلاقياً وذي تربية حسنة . في يوم من الأيام عدت الى البيت مرهقاً

وما أن جلست على الكرسي حتى شعرت بوخزة في مؤخرتي ، ونظرت الى الكرسي وإذ بتوفيق افندي يجلس فوقها وقد دخلت فوهة العبوة في فخذي فنسيت وقتئذٍ التربية والأخلاق وصرخت :

ـ ولك ... لعن الله أبا شوارب توفيق افندي أبو الشوارب .

ولكن كل ما أفعله كان يذهب سدى ... فكل يوم كان يدخل الى البيت عبوات جديدة من توفيق افندي ابو الشوارب ، كنت أتوتر واغضب كثيراً فقلت :

ـ يجب أن نسكن في بيت جديد لأن توفيق افندي أبو الشوارب لم يترك لنا في هذا البيت مكاناً لنجلس فيه .

في إحدى الأمسيات جاءنا ضيوف الى البيت ، وما أن حرّك أحد الضيوف الجالسين رجله حتى أسقط توفيق افندي أبو الشوارب على الأرض فخجل كثيراً قلت :

ـ أنا آسف جداً .

ـ فقال :

ـ ليس مهماً يا سيدي ، وبيتنا أيضاً مليء بمثل هذه العبوات ولكن ما فائدة كل هذا ؟

لقد سادت الفوضى في البيت بسبب توفيق أفندي أبو الشوارب . صرخت في إحدى الأمسيات قائلاً :

ـ يا إلهي ... ما فائدة كل هذا العدد الضخم من توفيق أفندي أبو الشوارب ؟ !

فقالت أمي :

ـ آ ا ا ا ا . . . يا ولدي ، هذا الماء ليس للفسيل وحسب بل إنه ينفع لكل شيء ، إني أنظف أسناني بتوفيق أفندي أبو الشوارب .

كدت أجن ، فقلت لها :

ـ يا أمي ، هل رأيت أحداً ينظف أسنانه بماء للفسيل ؟ !

ـ آ ا ا ا . . . طبعاً ، إنه ينظفها بشكل رائع ولا يترك أي أثر .

ـ حسن ، ولكن كيف ينظفها ؟

ـ بسهولة بالغة ، أضع توفيق أفندي أبو الشوارب في كأس ماء ، ثم انـزع أسناني وأضعها في الكأس وبعدنصف ســاعة تصبح ناصعة البياض .

يا إلهي إنها تقصد طقم أسنانها .

هل رأيت يا سيدي كيف يؤثر هذا الإعلان في الناس ، إنها تنظف أسنانها بماء الغسيل ، ولو وقف تأثير هذا الإعلان عند هذا الحد لكان كل شيء على ما يرام بل ذهبنا الى أبعد من ذلك ، فنحن بتنا نستعمله للفسيل والجلي وللخشب وللزجاج وكل شيء موجود في البيت يغسل بتوفيق أفندي أبو الشوارب ، وكلما اشتريت منه أكثر كلما زاد نصيبك من الربح أكثر وأكثر أتى أخي وزوجته وولديه في الصيف الى زيارتي ، وفي يوم من الأيام . رأيت ولده الأكبر يدخل الى البيت وبيديه عبوتين من توفيق أفندي أبو الشوارب فصرخت متسائلاً :

ـ ما هذا ؟ !

فقــال :

ـ اشتريتهما من نقودي يا عمي ، من مصروفي الخاص .

ـ ولك ، لماذا اشتريت هاتين العبوتين ؟ ! هل ستغسل ثيابك بنفسك ؟! .

ـ لا ا ا ا ... أنا سآخذ البطاقة منها وحسب ، كي أشترك في السحب القادم . انظر الى أثر الإعلان يا سيدي ، إنه يشتري العبوة ، يفرغ ما بداخلها في المرحاض ويأخذ البطاقة فقط .

في يوم ٍ أحد ٍ حار جداً ، فتحت باب الثلاجة كي أشرب ماءً بارداً ، فوجدت ثلاث عبوات من توفيق أفندي أبو الشوارب ... لا ا ا ا ... لا يمكن أن أسمح بدخول هذا الرجل الى الثلاجة أيضاً ، فصرخت قائلاً :

ـ من وضع هذه العبوات في الثلاجة ؟ ! .

ولكن لم يأتني الجواب .

بعد هذه الحادثة بعدة أيام ، لم يحضر لنا بائع الماء ماءً للشرب ، ولم أجد في البيت قطرة ماءٍ واحدة ، لأن المياه كانت قد انقطعت ، كدت اشتعل من شدة حرارة الجو ومن قلة الماء ، ولكنني كنت أرى ابن أخي الأصغر بين الحين والآخر يدخل الى المطبخ ويخرج ، وكان كلما خرج يمسح فمه المبتل بالماء ، فتشوقت لمعرفة ما يفعله الطفل ، في إحدى المرات نظرت إليه من ثقب الباب وأمسكت به عندما وضع عبوة توفيق أفندي أبو الشوارب على فمه . فقلت له :

ـ ولك ، ماذا تفعل ؟ ! ستصاب بالتسمم ، استدعوا له الطبيب بسرعة كي ينظف معدته .

قال الطفل عندما رأى آثار الخوف على وجوهنا :

ـ لن يحدث أي شيء ، ولِمَ الخوف يا عمـي فأنا أشـرب منـه باستمرار . وشرب النصف المتبقي في الزجاجة . ولم يحدث له أي شيء.

قالت حماتي عندما رأتني مضطرباً :

ـ ليشرب ... ليشرب ... إنه ينظف معدته .

ـ كدت أجن ، وضعت يدي على رأسي ورحت أعبث في شعري وأبعثره في كل الاتجاهات من شدة غضبي .

فقالت حماتي بكل هدوء أعصاب :

ـ أنا أشرب منه عندما أصاب بإمساك ، إنه مفيد جداً ، وأنت أيضاً اشرب منه قليلاً إنه يهدىء الأعصاب .

ـ ما هذا ؟ أهو مهدىء للأعصاب أم ماء للغسيل ؟!

ـ إنه ماء للغسيل ولكنه مفيد للشرب .

قالت زوجة أخي :

إنّ جارنا يغذي أطفاله على توفيق أفندي أبو الشوارب ، يضعون توفيق أفندي في زجاجة الحليب ويطعمون أطفالهم منه ، فينام الأطفال نوماً عميقاً . فقالت زوجتي :

ـ إنه مفيد للعيون أيضاً ، فأنا منذ سنتين أغسل عيني بتوفيق أفندي أبو الشوارب .

ـ يا عزيزي إن هذه الاعلانات مدهشة ومخيفة أيضاً للغاية ، حسب ما فهمته من هؤلاء الناس ، فإن الشركة تضع ماء صافي في العبوات ويبيعونه للشعب على أنه ماء توفيق أفندي أبو الشوارب للغسيل . أنا متأكد من أنهم يفعلون هذا ، ولكن كيف ستشرح لهؤلاء الناس ؟! لا يمكن أن تفرقه عن ماء الشرب العادي الذي ينزل من الصنبور .

كان الابن الأكبر لأخي يلعب بالكرة في الشارع فجرحت ركبته ، جاء راكضاً الى البيت ، وبينما كنت أبحث عن الأوكسجين واليود والكحول جاءت أمه وسكبت ماء توفيق أفندي للغسيل على ركبته .

إنه توفيق أفندي أبو الشوارب ينفع لكل شيء . لأننا يا سيدي كي نستفيد من البطاقة للاشتراك في السحب الدوري نجد المبرر الكافي لاستعمال توفيق أفندي لكافة الاحتياجات .

أقسم بالله أني مللت من البيت ، ولم أعد أرغب بالدخول إليه . في إحدى الأمسيات صرخت بأعلى صوتي عندما كنت أجلس في المرحاض قائـلاً :

ـ ولك ، على الأقل ، امنعوا هذا الرجل من الدخول الى هنـا ، لا تضعوه هنا ، لا أريده أن يدخل الى المرحاض .

يا سيدي عذراً ، كيف يمكنك الجلوس في المرحاض وأمامك عـدة أشخاص مفتولي الشوارب ينظرون إليك . شيء معيب فعلاً ، لا تنسى أن النسـاء أيضاً يدخلن الـى المرحاض ، قالت زوجتـي عندما سمعتني أصرخ في المرحاض :

ـ لماذا تصرخ ؟ لقد وضعته أمي في المرحاض .

ـ ولماذا وضعته أمك هناك ؟

لأن أمي تتنظف وتتطهر باستعمال توفيق أفندي أبو الشوارب .

لقد فهمت يا سيدي أنه لا مكان لي في البيت ، فأنا إن كنت شخصاً واحداً داخل البيت فإنه يوجد بالمقابل ألف توفيق أفندي أبو الشوارب، أينمـا نظرت أرى تلك الشوارب الضخمة متجهة نحوي

في ليلة من ليالي الشتاء البـاردة ، استلقيت في سريري ومددت رجلي آ آ !!!! . . . ما هـذا ؟! أحسـست بشيء بـين رجلي ، فسألت زوجتي قائلاً :

ـ ما هذا ؟!

ـ إنه توفيق أفندي أبو الشوارب .

ـ لا !!! . . . لن أسمح لهذا الرجل بالنوم في سريري .

ـ الطقس بارد جداً ، ولهذا عبأت زجاجات توفيق أفندي أبـو الشوارب بالماء الساخن كي أدفأ السرير .

قذفت الصوات وصرخت :

ـ لا اريده هنـــا ...

لقد ساءت الأمور كثيراً ، أدخل الى سريري فأجد شوارب توفيق افندي تنام بيني وبين زوجتي ، فكر قليلاً ، عذراً ، أمن المعقول أن ننام ثلاثة أشخاص في السرير أنا وزوجتي وتوفيق أفندي أبو الشوارب ، أمدُ يدي الى زوجتي فأجد شوارب توفيق أفندي مستلقية على صدرها .. ما هذا يا االله ؟ !!!!

سأجن يا أخي ، لا بل جننت فعــلاً ، وفي النهايــة اعترضت على ما يجري قائلاً :

لن يدخل هذا الرجل ابو الشوارب إلى بيتي بعد الآن .

ـ من ابو الشوارب هذا ؟

ـ توفيق افندي أبو الشوارب ، وليكن عندكِ علمٌ بما سيحدث .. لن ادخل البيت الذي يدخله هذا الرجل .

لقد اثمر اعتراضي وسحبت عبوات توفيق افندي من البيت ، لقد سحبت كل العبوات ومع ذلك ما زلت أرى شواربه تتجول في البيت .

في إحدى الليالي وعندما كنت نائماً صرخت بصوتٍ عالٍ :

ـ اسحبْ شواربك من هنا ولك ... اسحب شواربك من هنا أيها القذر .. كان صراخي عالياً وحاداً لدرجة اني ايقظت اهل بيتي والجيران فسألوني بخوف :

ـ ماذا تقول ؟ اية شوارب ؟ !!

ولم أخرج صوتي لشدة خجلي .

أنظــر الى المرآة عندمــا أحلق لحيتي فأجد على وجهي شوارب طويلة ، وكنت أقول بيني وبين نفسي « لم يعد يدخل الى البيت ، فلماذا

اراه دائماً ، لا شك ان اعصابي متوترة بعض الشيء ، ستستمر هذه الحالة وتنتهي ولا شك » .

ربما كانت ستستمر هذه الحالة لو أن زوجتي لم تحضر توفيق أفندي الى البيت في الخفاء فقلت لزوجتي :

ــ انظري إليّ إما أنا أو توفيق أفندي ابو الشوارب .

ــ لا أستطيع أن أنجز عملاً بدون توفيق أفندي أبو الشوارب ، إنه ينفع لكل شيء ، .

ــ وانا ، لا انفع لشيء .

ــ إنك تنفع ، ولكنك لست مثل توفيق أفندي ابو الشوارب . إنه ينفع لكل احتياجاتي ولكل اعمالي .

خرجت من البيت ولم أعد إليه بعد ذلك ، وقدمت زوجتي للمحاكمة من اجل إتمام إجراءات الطلاق . ارايت ؟ لا شك أن هذا الرجل يدخل الى بيتكم ايضاً . لا يوجد بيت لم يدخله .

وصلنا الى الجزار ، دخلت انا الى المحل وذهب الرجل في حال سبيله . لقد حزنت لوضعه كثيراً .

صرّ اللحام الرئة التي اشتريتها للقطة بورقة صحيفة ، وعندما خرجت نظرت الى الورقة فوجدت صورة رجل بسط فوق شفته العليا شاربين مفتولي وحادين ، إنه توفيق افندي ابو الشوارب : « لتلبية احتياجات ست البيت توفيق افندي ابو الشوارب » .

إن هذا الإعلان مدهش ، مدهش للغاية ، لأن القسم الذي رميته سقط على الأرض ومع ذلك فقد كانت تلك الشوارب ظاهرة وواضحة تماماً ... الشوارب المفتولة ... تلعب باستمرار .

أهذا هو المشاكس الذي يسمونه حصاناً

« أيواه .... أيواه .... » هذا ما كان يردده عبدي الشركسي وهو يلطم خده . لم يعد باستطاعته العوده الى القرية ، حتى رؤية بيته واسرته صار شيئاً مستحيلا . « تفوه .. تفوه .. آه لقد انتهيت ، واية نهاية تعيسة » جلس على صخرة الجرن الموجودة قرب النبع وراح يفكر بعمق » .

« اعداؤنا . . . نعم اعداؤنا هم الذين اشاعوا بين الناس بأن الشراكس سراقوا الخيل ، علماً بأن هذا الكلام مجرد كذب وافتراء ، فالشراكس لا يسرقوا الخيل ، التوبة يا ربي . . . الشركسي لا يسرق الخيول ، ولكن ايسمح للآخرين بسرقة حصانه ؟! . آخ يا رأسي . . . اي أبن عاهرة سرق حصاني .... إنه ليس حصان عادي ، بل هو من سلالة الخيول العربية الأصيلة .. ليتني استطعت أن أفدي ، تلك البقع البيضاء التي تزين ظهره ، بنفسي . يا حصاني ذو اللون الاحمر المحروق .... والساق التي يزينها البياض . سيقال لقد سرق حصان عبدي الشركسي ، ولك يا عبدي الجحش أيسمح قوم الشراكس لأحد بسرقة خيولهم ؟ يا عبدي المغفل . . . لقد اسأت الى سمعة الشراكس ولطخت شرفهم في الوحل اي مصيبة وقعت على رأسي . . . آه .... لقد اشاعوا بين الناس بأن الناس بأن الشراكس سراقوا خيول ، لتصاب اعين الأعداء بالعماء ؛ ها أنذا شركسي ومع هذا لم استطع حتى حماية حصاني من السرقة » .

جلس عبدي الشركسي واضعاً رأسه بين راحتيه مسنداً مرفقيه على ركبتيه وكأنه يبكي ، وراح يفكر بألم :

لدي رغبة عارمة بالانتحار ، ولكني لن أجرؤ على ذلك ، علماً أنه لا يوجد طريقة افضل من الانتحار ، سأرمي نفسي من أعلى الصخرة الى الوادي وليتفتت جسدي الف قطعة ولتصبح كل قطعة الف أخرى .

سيقال بعد ان اموت : لقد طار هذا الشجاع كالريح وسقط في الوادي إن العيش في هذه الدنيا حرام علي .

لا ... لن أستطيع النظر الى وجه أي شخص في القرية او في البلدة ، سينظرون الي ويقولون : هذا هو الشركسي الذي سرق منه حصانه سيجعلونني تسليتهم وهم يشيرون الي . لقد أصبحت محط سخرية الأطفال وانتهى الامر . دعك من كل هذا ، فهناك ما هو أسوأ منه وهو أن زوجتي لن تسمح لي بتخطي عتبة هذا البيت عندما تسمع بسرقة حصاني ..... تفووووه ... لقد تطلخ شرفي بالوحل ... »

كان عبدي الشركسي يهتز يمنة وشمالا في المكان الذي يجلس فيه « الموت ليس حلا ، ... هيا لنفرض انني أزهقت نفسي ... والك الن يرى أحد فرسي ، ذات الشعر الأحمر المحروق ، المسروقة ؟ سيقولون هذه هي فرس عبدي الشركسي ، لا... لا ، يجب ألا أموت ، فاوت ليس حلا ... » لقد قرر عبدي الشركسي الغارق في بحر افكاره أن يعمل شيئاً ليغسل العار الذي لحق به . يجب الا يكون قد سمع أحد من الناس بأن فرس أحد الشباب الشراكس قد سرق .

سمعت أصوات حوافر الخيل من بعيد ، جلس على صخرة الجرن التي يشرب الحيوانات منها وأسند ظهره على الصخرة التي يصب ماء النبع منها ، وتصنع النوم . اقتربت اصوات حوافر الخيل ... اقتربت اكثر ، ظهر الفارس ... نظر عبدي الشركسي الذي تصنع النوم الى فوق ، فرأى حصاناً يشرب من الجرن ، ولكن هذا الحصان لم يعجبه ابداً ..... انه لا يشبه الأحصنة ابداً ، بل هو اشبه ما يكون بالحمار ، فلو ذهب الى القرية وقال لهم : لقد استبدلت فرسي بهذا ، سيضحك الجميع عليه . إذاً لا بد من الانتظـار ، لا شك سيأتي نصيبه ، أسلم نفسه للنوم ... حتى انه تصرف وكأنه لم يسمع سلام الرجل الذي حياه . ساق الفارس حصانه وذهب .

وبعد ذلك جاء اثنين او ثلاثة فرسان ، اشربوا خيولهم ، ولكن عبدي الشركسي ما زال يتصرف وكأنه نائم . ثم قال في سره : « يا

حظي ويا قسمتي ... » في هذه الاثناء سمع أصوات حوافر خيل ، فانتصب عبدي الشركسي على رجليه مباشرة ، ان الحصان الاصيل لا يخبيء نفسه من وقع حوافره . ولك يا أخي ... من يملك حصانا ، يخرج هذه الاصوات من وقع حوافره على الارض ، يستطيع أن يدعو فتيات سبع قرى شركسية للدبكة ، يا لها من أصوات رائعة . انهـا ليست أصوات حوافر خيل ، بل هي أصوات آلة موسيقية شركسية لم يَرَ مثيلها بعد وفو ذلك بدأ الحصان بالصهيل .

عندما نظر عبدي الشركسي من طرف عينيه الى الحصان ، بدا وكأن قلبه يقفز بين أضلاعه . بدا هذا الحصان الذي تقدم الى الجرن وهو يحفر التراب بطرفيه الأماميتين ، أشبه ما يكون بفتيات الشراكس اللاتي لا يستطعن الثبات في مكانهن .

تصرف عبدي الشركسي وكأنه استيقظ على صوت صهيل الحصان ، وبدأ ينظر إليه من مكانه ، حيّاه الرجل الراكب على الحصان كما فعل بقية الفرسان :

ـ السلام عليكم .

فرك عبدي الشركسي عينيه بظاهر كفيه وكأنه لم يسمع سـلام الرجل ، ونظر إليه من الأسفل الى الأعلى بدهشة ، ثم قال له :

ـ يا إلهي .. امان يا ربي .. ما هذا ؟! كيف حدث شيء كهذا ؟ هل ارى حلماً ؟ ! ما هذا الذي أراه ؟ !

فقال الرجل :

ـ ماذا هناك ؟ ! لماذا دُهِشت ؟

قال عبدي الشركسي :

ـ أليس شيئاً مدهشاً ؟ ! . أية حكمة في هذا يا إلهي ؟ ! . « يا قبضاي » أرجو الا يكون سؤالي معيباً ... كيف ولدتك أمك مع هذا الشيء الذي في الأسفل ؟ ! .

فقال الرجل مستغرباً :

ــ مــاذا تقول أيا الرجــل ؟ ما معنى هــذا ؟ ألم تر حصاناً في حياتك ؟ ! .

ــ ماذا ؟ ! . حصان ؟ ! . يعني أن هذا هو الذي يسمئونه حصاناً اليس كذلك ؟ ! . اهذا هو الحصان ؟ ! .

عبدي الشركسي يتلو الدعوات بغزارة والرجل يضحك لحماقته .

ــ يا بني ، ألم ترَ حصاناً مولوداً من امه ؟ ! .

ــ يا إلهي ، كلا لم أرَ .

ــ ولَكَ الا يوجد خيول في قريتك ؟ .

ــ خيول ؟ ! وماذا ستفعل في قريتنا ؟ ... يوجد في قريتنا عدد كبير من الحمير .

ــ ولك ، أيها المغفل ، ألم تخرج من قريتك أبداً ؟ ! .

ــ اليوم هو اول يوم اخرج فيه من قريتي ، ... يا إلهي اهذا حصان ؟ .

ــ وماذا تظنه ؟ نعم إنه حصان ...

ــ الله الله ... إذاً هــذا هو المشاكس الذي يسمونه حصاناً ، ويشرب ماءً اليس كذلك ؟ ! .

ــ الا تريده أن يشرب ماءً ؟ هل انت اعمى ؟ طبعاً إنه يشــرب كمــا ترى .

ــ نعم ، إنه يعب المــاء ... آهٍ يا إلهي ، إنك على كل شيء

ــ نعم ، إنه يعب المــاء ... آهٍ يا إلهي ، إنــك على كل شــيء قدير ... يا قبضاي ،وماذا يفعل هذا الذي تسمونه حصاناً ؟

قـال الرجـل :

ـ إننـا نركب عليـه .

ـ نركب عليه ؟ ! .

ـ نعم نركب عليه ، ويعدو بسرعة البرق . يطير مثل العصفور ، إنه يوصلك إلى المكان الذي يستغرق خمسة ساعات مشياً على الأقدام خلال زمن أقل مما يستغرقه شرب سيكارة .

ـ يا الله .... لاتقل هذا .... يا إلهي .... الا يسقط الإنسـان من فوقه ؟!

ترجّل الرجل وقال :

ـ تعال واركب لترى .

ـ يا إلهي ، لا استطيع أن أركب .

صار الرجل يضحك بجنون ، فقد وجد تسلية له ، سيركّب هذا الاحمق على ظهر الحصان ، وكم سيتسلى ويُسر ويضحك عندما يراه على قمة ظهر الحصان .

ـ تعال .. تعال ...

ـ لا ، لا .. ارجوك ياقبضاي ، لا أستطيع الصعود على ظهـر هـذا المـارد .

ـ تعال ، جرّب قليلاً ، إنه سهل جداً .

اقترب عبدي الشركسي من الحصان .

ـ ضع رجلك على الركاب .

ـ ماذا قلت ؟ الركاب ؟!.

ـ نعم ، يقال « رِكاب » للمكان الذي ستضع رجلك عليه قبل أن تصعد .

ـ رِكاب أليس كذلك ؟ يا سلا ا ا ا م .. يقال لهذا رِكاب أليس كذلك ؟

ـ نعم ، هكذا يقال له ، هيا .. لاتخف .. ضع قدمك .

ـ وإذا وقعت ؟

ـ يا أختي لاتخف ، إنني امسكك جيداً ...

وضع عبدي الشركسي رجله على الرِكاب وسحبها :

ـ لا ياقبضاي ، أنا لا أملك القدرة على فعل أمور كهذه .

ـ ولك ضع رجلك ، وامسك هذا العِنان .

ـ هل قلت العِنان ؟ وما هو العِنان ؟

ـ انظر ، يقال لهذا عنان ... اقفز على السرج ....

ـ سرج أليس كذلك ؟!

ـ نعم سرج ، هيا اقفز .

ـ يجب أن أقفز هاااا ؟

ـ ولك اقفز هيا ...

ـ أرجوك يا قبضاي امسكني جيداً ،... ادفعني من الخلف ، يا إلهي ، إنها مثل المنارة ..

جلس عبدي الشركسي فوق السرج ، كان يرجف من الخوف وهو يتوسل للرجل قائلاً :

ـ أقبّل يديك .. لا تتركني يا قبضاي ..

كاد الرجل الذي يمسكه من خصره أن يسقط مغمياً عليه من شدة الضحك ...

ـ أرجوك لا تتركني ... والآن ، ماذا سنفعل يا قبضاي ؟

ـ اضرب برجليك على بطن الحصان .

ـ لا تقل هذا ..

ـ سينطلق ... اتركه أنت ...

ـ يعني .. سينطلق ها ؟...

رفعت الفرس راسها ، وصارت تصهل وهي تدق الأرض بطرفيها الأماميتان ، حينئذٍ صرخ عبدي الشركسي .

ـ يا سـلاااام ...

فصرخ الرجل قائلاً :

ـ لا تخف ولاااا ..

لقد وجدت الفرس فارسها ، فبسطت جناحيها وطارت ،

أما الرجل الـذي تدحرج على الأرض من شدة الضحك ، فقـد توسعت عيناه وتسمَّر في مكانه وهو ينظر الى الغبار ، المتطاير من حوافر الفرس ، وهو يعانق السحاب .

* * *